١- المجلس الأول: كيفية تلقّي علم التفسير (١)، فجر الخميس ١١ رمضان ١٤٣٢
٢- المجلس الثاني: كيفية تلقّي علم التفسير (٢)، فجر الجمعة ١٢ رمضان ١٤٣٢
٣- المجلس الثالث: بناء ملكة التفسير، فجر السبت ١٣ رمضان ١٤٣٢

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

دروس التفسير
بالمسجد النبوي الشريف
السنة الأولى ١٤٣٢

لفضيلة الشيخ
صالح بن عبدالله بن حمد العصيمي
غَفرَ اللَّهُ لهُ ولوالديهِ ولمشايخهِ وللمسلمينَ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(المجلس الأول): كيفية تلقّي علم التفسير:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾[النساء].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[الأحزاب].

أما بعد.. فإن أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

وبعد، فإن الله تعالى لّما كتب أن يجعل في الأرض خليفة قال لملائكته: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فقال لهم: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[البقرة]، وخلق الله تعالى آدم خليفة في الأرض من طين ثم قال له: كن، فكان، ثم أسجَدَ الله عز وجل له ملائكته وأظهر عليه مِنّتَهُ وأنزله جوارَه في جنته، ثم إنَّ الله تعالى حذره وزوجه طاعة إبليس، ونهاهما أن يأتيا الشجرة أو أن يأخذا منها، فأزلّهما الشيطان عنها واقترفا الخطيئة فأكلا من الشجرة؛ فأهبطهما الله تعالى من الجنة وقال: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾[البقرة:٣٨] ، ثم إن الله تعالى لما أهبطه أنزله الأرض وأنكحه زوجه وبثّ منهما رجالا كثيرا ونساءً، ولما مات آدم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- خلفت أمته أمة أخرى حتى تكاملت عشرة قرون بعد آدم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؛ كلها على دينه لم تُبَدِّل ولم تُغيِّر،

ثبت ذلك من كلام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في «صحيح البخاري».

ثم إنّه حدث الشرك بعدُ في أمة نوح -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فبعث الله عَزَّ وَجَلَّ إليهم نوحًا بشيرا ونذيرا كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[البقرة:٢١٣]، فجعل الله تَعَالَىٰ هدايته مُبَيَّنة لكلِّ أمَّة بنبيٍّ يُبعث وكتاب يَنزل حتى توالت هٰذه الأمم فانتهت إلى الأمة السبعين، وهي هٰذه الأمة، فعند الترمذي بسند حسن من حديث بهزٍّ بن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جده معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إنكم تُتِمون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله عَزَّ وَجَلَّ»، وإنَّ هٰذه الأمة المتمة السبعين وهي الكائنة أكرمَ الأمم وأعزَّها على الله تَعَالَىٰ؛ كان من أسباب كرمها وعزتها أن الله عَزَّ وَجَلَّ ختم الأنبياء الذين يُرسَلون والكتب التي تَنزِل على هٰذه الأمة، فكان نبيُّهم هو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان الكتاب المُنْزَل عليه هو القرآن الكريم، فبعث الله عَزَّ وَجَلَّ إليهم محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيرا ونذيرا، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليكون خاتمة المقام في تصديق قوله تعالى مُتَأوَّلا بالحقيقة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:٢١٣].

فكان محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الرسول المصطفى المبعوث إلى هٰذه الأمة كما قال الله تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾[الجمعة]، وصار الكتاب المُنْزَل على هٰذا النبي الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو القرآن الكريم كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[الواقعة]، في آيٍ أُخر تُرشِد جميعا إلى أن الله تَعَالَىٰ ختم الرسل المبعوثة إلى الأمم بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وختم الكتب التي أُنزلت على

الرسل بالقرآن الكريم.

وجاء القرآنُ الكريم كتابا عظيما جليلا هو أعظم الكتب المنزلة من ربنا ﷻ، وله من المنافع والمآثر ما ليس لغيره من الكتب كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾[النساء] ، وقال ﷻ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف] ، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾[آل عمران] ، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾[الجاثية] ، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[الشورى] .

فالقرآنُ الكريم فيه الهداية التامة وهو الضياء العام، ولا يوجد أمر من أمور الدنيا والآخرة إلا وقد اشتمل القرآن الكريم على البيان التَّام النافع له، فمن أراد منفعة عاجلة أو آجلة يقصدها في كتاب يطلبه، فإنه لا يوجد في شيء من الكتب الإلهية فضلًا عن غيرها من الكتب؛ كتاب كالقرآن الكريم، وإذا كان القرآن بهٰذه المنزلة فهو حقيق بالأوصاف الجليّة التي انتظمت في بعض آياته مما ذكرنا وفي غيرها، وهي التي أشار إليها شيخ شيوخنا حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «مِيمِيّته» إذ قال:

هو الكتاب الذي من قام يقرؤه ... كأنما خاطب الرَّحمٰن في الكَلِم
هو الصراط هو الحبل المتين هو ... الميزان والعروة وثقى لمُعتصِم
هو البيان هو الذكر الحكيم هو ... التفصيل فاقنع به في كل مُنبَهِم
هو البصائر والذكرى لمدّكِرٍ ... هو المواعظ والبشرى لغير عَمِي
هو المنَزَّل نورا بيّنا وهدى ... وهو الشفاء لما في القلب من سقم

فإذا كان القرآن بهٰذه المنزلة، وقد أمرنا الله ﷻ فيه بأوامر عظيمة تتعلق به كقراءته وتدبره والعمل به والحُكْم به والتحاكم إليه والاستشفاء به، فإن منافع ما في القرآن الكريم لا يَتحقق كمالها أو أصلها إلا بمعرفة معانيه، ولا ينال المرء حظه من التلذذ بالقرآن قراءة حتى يكون له نصيب من معرفة معانيه، ولأجل هٰذا قال إمام المفسرين محمّد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (إني لأعجب ممن يقرأ القرآن ولم يعلم تأويله

كيف يلْتَذُّ بقراءته) اهـ، أي: أن العبد الذي يقرأ القرآن لا تحصل له اللذة الكاملة بالقرآن الكريم إلا مع معرفة المعاني، وهٰذا أمر ظاهر في كل كلام، فكيف بالقرآن الكريم، ولأجل هٰذا قال في تصديق المعنى المتقدم أبو العباس بن تيمية الحفيد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في مقدمته الشهيرة؛ قال: (حاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن)، وقال أيضا: (وكل كلام فالمقصود منه معرفة معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك)، وقال أيضا: (والعادة أيضا تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالحساب والطِّب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله تعالى الذي به عِصمتهم، وهو سعادتهم ونجاتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة) انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، فينبغي أن يعلم المرء أن من أعظم ما يَفتح له مشارع الادراك والعمل بالقرآن والتحاكم إليه والاستشفاء به ووجدان لذته هو معرفة تفسيره، ولأجل هٰذا كان السلف رحمهم الله تعالى يجتهدون في تَعَلُّم تفسير كتاب الله ﷻ، وحقيقٌ بمن أراد النجاة صغيرا أو كبيرا عاميا أو طالب علم أن يكون له حظ من كلام الله ﷻ، فإذا كان الناس يفزعون إلى إمضاء أوقات كثيرة في تَفَهُّم كلام المعظمين من البشر من الشعراء أو الملوك أو غيرهم، فإن المريد لنفسه النجاة حقيقٌ به أن يجعل لنفسه حظا من معرفة معاني كتاب الله ﷻ، والناسُ ربما رأوا القرآن الكريم كتابًا سهلا واضحا فأهملوا تفسيره، ولو أنهم اطلعوا على حقائق كلام الله ﷻ لذَهلت عقولهم، فإن القرآن الكريم لا تفنى عجائبه ولا تنتهي ذخائره ولا يخرج المرء منه بعِبرة إلا ووجد بعدها عِبرة، ولا يقرأ الإنسان آيةً يعرف تفسيرها إلا ويتبدَّى له من معانيها ما لم يحط به علما، ذلك أنه كلام الله ﷻ، ولا يحيطون بالله ﷻ علمًا، وكل كلام من كلام البشر ينتهي إلى معنى، أما كلام رب البشر ﷻ فإنك ربما وجدت في كلام بعض متأخري المفسرين، بل من فَتَح الله ﷻ له بصيرةً في فهم القرآن ما لم تجده في كلام السابقين، ولا نعني بذلك معنى جديدًا لم يذكره السلف، فإنه لا يكون للقرآن معنى صحيح إلا وهو في كلام السلف، ولكن نريد وجها من الفهم الصحيح الذي ذكره السلف رحمهم الله تعالى، ومن مُثُلِ ذلك ما ذكره المنصور السّعدي أحد ملوك المغرب في مجلسه في ذكر قول الله ﷻ لما ذكر نعيم أهل الجنة: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[السجدة:١٧] ، فإنه قال لجلسائه: لما كان نعيم الجنة أعظم النعيم؛ كيف ذكر الله ﷻ أعْيُن على جمع قِلّة وهي صيغة أفْعُل، وكان حقيقا للمناسب للنعيم أن

يذكره على الكثرة؟ فسكتوا، فقال: لأن الله ﷻ قضى أنه لا يدخل الجنة إلا قليل. وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ، فإن الأحاديث شاهدة بهٰذا أنه لا يدخل الجنة من كل ألف إلا واحد، وهٰذا ثابت في «الصحيحين» وغيرهما.

إذا تقرَرَ مقام علم التفسير وعظم جلالته فينبغي أن يعلم المرء بعدُ أن كل مطلوب له طريق يوصل إليه، وهٰذه قاعدة أجمعت عليها الأمم قاطبة، فمن أراد شيئا من الأمور الحسية أو المعنوية فلا بد أن يسلك طريقا يُفضي به إليه، وجادّةً تدله عليه، ولما كان العلم مطلوبا معنويًّا؛ فإن له جادة توصل إلى كل فن منه، ويشهد لذلك ما رواه مسلم بن الحجاج في «صحيحه» من حديث سليمان الأعمش عن أبي صالح الزيّاد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: فذكر حديثا وفيه: «ومن سلك طريق يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة»، وكما أن الجنة لها طرق توصل إليها وهي الأعمال الصالحة والاعتقادات الكاملة، فكذلك كل فن من الفنون له طريق يوصل إليه، ويقال حينئذ: إن معرفة تفسير كلام الله ﷻ لها طريق توصل إليها وتفضي لسالكها إلى الإحاطة بعلم التفسير.

إيراد: من الناس الآن من يقول: إن علم التفسير يُتلقى بدون شيخ. يُمكن هٰذا أو لا يُمكن؟ ما الجواب؟ لا يُمكن أن يُتلقى علم التفسير بدون شيخ، فعند أبي داود من حديث الأعمش عن عبدالله بن عبدالله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: (تَسمعون ويُسمع منكم، ويُسمع ممن سمع منكم)، وإسناده قوي.

وهٰذا الحديث حجة أن كل علم من العلوم لا يُؤخذ إلا بالتلقِّي، فلا يظنّن أحد أن علما من أعظم العلوم؛ وهو كتاب الله ﷻ يُتلقى بدون شيخ.

والمقيَّدات التي قُيِّدت بأخرة في هٰذا مما يُروّجُ فيها أنه يُتلقى علم التفسير بدون شيخ؛ قالها المتكلم بها بدون شيخ، فإنه لم يأثُر هٰذا الكلام الذي ذكره عن شيخ تلقّاه، وإنما هو من بُنيّات أفكاره.

ويُعلم أيضا أن من الغلط من يظن أن علم التفسير يُؤخذ بالقراءة المجردة في كتب التفسير، فإن من الناس اليوم من نعت طريق تلقّي التفسير فقال: أولا يقرأ تفسير كذا، وثانيا يقرأ تفسير كذا، وثالثا يقرأ تفسير كذا، ومحُصِّلة من سلك هٰذه الجادة أنه خرج بلا معرفةٍ للتفسير، لأن التفسير ليس معادلات رياضية تُحفظ، وإنما هو علم يجمع بين إدراك جُملٍ من الأصول والقواعد مع صفاء النفوس وصلاحية القلوب،

فعند ذلك يُحاط بالتفسير، فالإنسان إذا قرأ تفسيرا كاملًا لا يُحيط بالتفسير أبدا، وإنما إذا ترقى في نُقَلِ التفسير درجة فدرجة فدرجة؛ فإنه قمينٌ أن يصل إلى الإحاطة بعلم التَّفسير، ووراء ذلك مقام آخر وهو بناء ملكة التفسير فيه، وللحديث عنها باب آخر ليس هٰذا محله، لكنّ محل هٰذا المقام وهو من الأمور الحقيقة بأن تُستفتح بها مجالس التفسير؛ الإرشاد إلى مراتب ومنازل تلقّي علم التفسير التي متى أخذ فيها الإنسان، فإنه بإذن الله ﷻ يصل إلى معرفة هٰذا العلم، وإنما خَفِيَ الإرشاد إلى هٰذه المراتب لعِزّةِ علم التفسير في الأمة.

فإن علم التفسير في الأمة منذ القديم قليل، وفي ذلك ذكر الزركشي في قواعده أن علم التفسير من العلوم التي لم تنضج ولم تحترق، فهو علم قليل في الأمة لِثِقَلِهِ، فإنه علم يحتاج إلى آلة عظيمة وعلوم متعددة، لكن من أخذ هٰذه الطريق على وجه صحيح مع دوام الإلحاح وسؤال الله ﷻ أن يفتح له، فإنه يُحيط علما بتفسير كتاب الله ﷻ.

وسننعت اليوم طرفا من هٰذه المراتب والنُقَل، ثم نستكمل بقيتها إن شاء الله تعالى غدا في مثل هٰذا الموعد.

ففاتحة المراتب التي يتلقّاها الإنسان كي يستفتح علم التفسير هي دراسة كلِّيات التفسير في الألفاظ، ومعنى كلِّيات التفسير في الألفاظ: الكلمات القرآنية التي يطَّرد معناها في القرآن الكريم.

وأصل هٰذا العلم ما رواه أحمد في مسنده من حديث درّاجٍ أبي السّمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كل حرف يُذكر فيه القنوت في القرآن فهو الطاعة»، فالكلية المذكورة في هٰذا الحديث فيها الإعلام بأن كلمة القنوت كيفما دارت في القرآن الكريم فالمراد بها الطاعة.

فمثلا قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾[الروم]، أي: مطيعون.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾[التحريم]، أي: المطيعين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الأحزاب:٣١]، أي: ومن يطع الله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾[آل عمران:٤٣]، أي: أطيعي ربك.

فكل هٰذا الأصل يرجع إلى هٰذه الكلية المذكورة، وأصلها في حديث نبوي في إسناده ضعف، وهٰذه الكليات المسمّاة بكليات التفسير في الألفاظ قُيِّدت لإخراج كليات التفسير في المعاني، فإن كليات التفسير نوعان:

أحدهما: كليات المباني، وهي التي ذكرتُ لك، والإحاطة بها ممكنة لعموم الخلق.

والآخر: كليات المعاني، وهي المستفادة من الاستقراء التام لأساليب القرآن الكريم.

وقلّ من أشار إلى هٰذا النوع أو أشاد به إلا نفرًا يسيرا في الأمة ممن له مكنة في علم التفسير كأبي العباس ابن تيمية الحفيد وتلميذه ابن القيم والشاطبي في مواضع متفرقة من كتاب «الموافقات».

فمن ذلك مثلا في كليات المعاني أن الله ﷻ إذا ذكر جزاء أهل الطاعة من الجنة، فإنه يذكر جزاء أهل المعصية من النار، وهلم جرّا.

وكليات المعاني تحتاج إلى شفوف نظر وإدمان العبد قراءة القرآن الكريم مع معرفة تفسيره، فهي مرتبة متأخرة تتعلق بمَلكَةِ التفسير، لكن باعتبار تحصيل علم التفسير فمُستفتحُ ذلك معرفة كليات الألفاظ في التفسير، وهٰذه الكليات في التفسير هي غير كليات القرآن، ومن الناس من يخلط بينهما.

فكليات التفسير هي الألفاظ التي يطّرد معناها في القرآن كالمثال الذي ذكرتُ لك.

وأما كليات القرآن فهي المعاني المبيَّنة في القرآن أنها عامة كلية، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر:٦٢]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦﴾[الرحمن]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾[آل عمران]، فهٰذا النوع المسمى كليات القرآن، وليس هو المراد.

وإنما المراد بالذكر هنا كليات التفسير على المعنى الذي ذكرتُ لك.

وفائدة كليات الألفاظ والتفسير أنها بمنزلة القواعد، فهي قاعدة تفسيرية، وهي المناسبة لمعنى القاعدة في اللغة والاصطلاح المنشور عند النحاة والفقهاء خلافا لغيرهم؛ لأن علوم القرآن والتفسير هي كما قال الزركشي لما ذكر التفسير: (لم تنضج ولم تحترق)، وقد خلط المصنفون بين أصول التفسير وقواعده وعلوم القرآن، لكن حسَب الوضع اللغوي والتصرف الاصطلاحي في علم الفقه والنحو، فإن أحقّ المعاني باسم قواعد التفسير هي التي تسمى بكليات التفسير في الألفاظ، لأنها قاعدة مطّردة تنفع في تفسير كل آية تتعلق

بها، فمثلًا نقول: (كلُّ سلطان في القرآن فهو حجّة)، فهٰذه قاعدة؛ إذا ورد السُّلطان في القرآن فمعناه الحجة، كقوله تعالى: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾[الأعراف:٧١]، أي: ما لكم به من حجة، وهٰذه الكلية صحت عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيما رواه الفريابي في «تفسيره» من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: (كل سلطان في القرآن فهو حجة)، فهي مفيدة في جعلها قواعد يفهم بها الإنسان معاني هٰذه اللفظة كيفما دارت في القرآن الكريم.

والمتن المرشح للإحاطة عِلْمًا بكليات التفسير في الألفاظ متن مبارك اسمه: «حُسن البيان في نَظْمِ مشتركات القرآن» للعلامة عبدالهادي بن رضوان الأبياري الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، وهو متن شِعريٌّ لطيف ضَمّنه جملة من كليات التفسير في الألفاظ نَقَلها من كلام السُّيوطي في الإتقان، وهي في الحقيقة ليست للسيوطي، وإنما لابن فارس، فإن ابن فارس هو أقدم مُصنِّف في هٰذا الفن؛ صَنَّف كتابا فيه اسمه: «أفراد القرآن»، وقد نُشِر هٰذا الكتاب اللطيف في أحد المجلات العلمية بتحقيق الدكتور حاتم الضامن، ثم تطور هٰذا الفن وأُلّفت فيه تصانيف عدة، وأحسنُ ما يَصلح منها للتلقّي بقراءته على الأشياخ هو المتن الذي ذكرتُ لك؛ الذي صنَّفه العلامة عبدالهادي الأبياري.

وهٰذا المتن يفتقد إلى الشروح والحواشي عليه سوى حاشية للمصنف نفسه نُشِرت في ضمن كتابه: «المواكب العَليّة على الكواكب الدُرية في الضوابط العلمية»، وهو كتاب عظيم في مجلدين جَمَع فيه ما كان سبق منه من نَظْمِ جملة من الضوابط العلمية في أنواع العلوم وعلق عليها تعليقات يسيرة، طُبِع بعضه في حياته ثم استكمله أحد تلاميذه حتى كَمُل الكتاب في مجلدين.

وهٰذه المنظومة سبق أن جردناها في نسخة مُصَححة وهي موجودة في أحد مراكز التصوير في المدينة النبوية.

أما المرتبة الثانية التي تلي دراسة كليات الألفاظ في التفسير، فهي دراسة غريب القرآن، **ومعنى غريب القرآن: الألفاظ التي تخفى معانيها لقلة استعمالها**. ويسمِّيه أهل اللغة بالوحشي من الألفاظ، ومعنى الوحشي: يعني المنفرد الذي يقل ذِكْره، فهو منفرد لا يمازج لسان العرب ودورانه على ألسنتهم قليل.

وهٰذا المعنى هو المراد في كلام الناس إذا قالوا: لا غريب إلا الشيطان، فإنهم يقصدون: لا متوحش منفرد إلا الشيطان، وبعض الناس يظن أن هٰذه الكلمة تخالف الوارد من الأحاديث في مدح الغرباء، وليس كذلك، وإنما عَنَوْا بها المعنى الذي ذكرناه لكم من إرادة التوحش والانفراد، وهي حال الشيطان.

وهٰذا النوع من العلم المحتاج إليه في تفسير كلام الله ﷻ أصله قديم مأثور منه ما روي من حديث البراء بن عازب عند الطبراني في الصغير أن النبي ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾[مريم] ، قال: (السَّرِيّ: النَّهر)، وروي موقوفا عند الحاكم وهو الصواب، وعلقه البخاري كذلك، فكلمة السَرِيّ: كلمة غريبة وتفسيرها النهر كما روي ذلك مرفوعا وصح موقوفا عن البراء بن عازب، وهٰذا شاهدٌ للغريب في القرآن الكريم، وهٰذا الفنّ من العلوم المحتاج إليها في تفسير كلام الله ﷻ لا يتعلق بكل كلمة في القرآن، وإنما يتعلّق في الكلمات التي يقلّ دورانها ويخفى معناها على عموم النّاس، وفائدته اكتمال فهم لغات القرآن، لأن لغات القرآن قسمان -ذَكَره أبو حيان الأندلسي في مقدمة «تحفة الأريب»-:

أحدهما: نوع يدركه كل أحد، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[المؤمنون:١٨] ، فكل أحد يسمع هٰذه الآية يفهم معناها.

والثاني: نوع لا يدركه إلا من تبّحر في علوم العرب ولغتهم، وهو المقصود بعلم غريب القرآن.

والمتن المعتمد أصلا في درايته هو كتاب «تحفة الأريب فيما في القرآن من الغريب» للعلامة محمد بن يوسف الأندلسي المعروف بأبي حيان الأندلسي، وهو رجل واسع الإطلاع في علوم العربية ولا سيما النحو واللغة، وله تفسير مشهور هو «البحر المحيط»، وأفرد كتابا في الغريب هو كتاب تحفة الأريب، فهو المتن المعتمد في تلقّي غريب القرآن.

ومن لطيف ما وقع في هٰذا الكتاب أنه ختم ببيان معنى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[الرعد:٣١] ، قال: (هي في لغة النَخَع: يَعلمُ ويَبِين)، فجعل معنى (ييأس) هنا في معنى (يعلم)، يعني: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله الناس جميعا، وهٰذا يُبيّن أهمية معرفة غريب القرآن.

وهٰذا الكتاب ليس عليه شرح ولا حاشية متداولة، لكن يوجد تسجيل للشيخ عبد الرَّحمٰن عَظْفوني في التعليق على هٰذا الكتاب، فمن وجد هٰذه التعليقة المسجلة صوتيا فإنه ينتفع بها في استشراح هٰذا الكتاب.

أما المرتبة الثالثة في تلقّي علم التفسير **فهي دراسة كلمات القرآن**، والمراد بكلمات القرآن: الألفاظ القرآنية عامة، والفرق بينها وبين الغريب أن الغريب يختص بالمنفرد القليل الدوران على اللسان، أما كلمات القرآن فإنها تشمل الغريب وغيره.

ومنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩]، ما رواه البخاري في «صحيحه» من حديث ابن شهاب عن سالم بن عبدالله بن عمر عن أبيه عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت»، فهٰذا من شواهد بيان كلمات القرآن التي صحت عن النبي ﷺ، فإنه فسر مفاتح الغيب يعني: خزائنه، بهؤلاء الخمس، والفرق بين هٰذه المنزلة وبين تفسير القرآن أن هٰذه المنزلة يستجدي فيها المتلقي معاني مفردات القرآن، بخلاف التفسير الذي يستجدي فيه المعاني الكلية دون المفردات، وفائدته الاطلاع على معاني الكلمات القرآنية، ففيه فائدة زائدة على معرفة الغريب التي سبقت، ففي الغريب لا يحيط المرء إلا بالكلمات القليلة الدوران التي هي غريبة، وأما في هٰذه المرتبة فيقع لمن تلقّاه الاطلاع على معاني مفردات القرآن.

والمتن المعتمد أصلا في درايته كتاب «كلمات القرآن توضيحٌ وبيان» للعلامة حسنيْن بن محمد مخلوف المالكي الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، فإنه كتاب مختصر نافع في بيان معاني كلمات القرآن، ووقعت فيه مواضع احتيج فيها إلى التعقّب صنف في الإشارة إليها أحد المعاصرين كتابا اسمه: «التعقبات المفيدة على كتاب كلمات القرآن»، فيستفاد بضمِّه إليه، وهٰذا الكتاب ليس عليه شيء من الشروح والحواشي، وهو حقيق بذلك كالكتابين السابقيْن، وفقدان الشروح والحواشي عليه وعلى ما مضى فيه أعظم إعلام بأن علم التفسير في الأمة قليل وعزيز.

وأما المرتبة الرابعة فهي دراسة الوجوه والنظائر القرآنية، والمراد بالوجوه والنظائر **القرآنية: الألفاظ القرآنية المتحدة لفظا أو أصلا والمختلفة معنى**، فتجد الكلمة واحدة في لفظها أو في أصلها، والمراد بلفظها:

أن تكون على نفس البناء: (الحسنى) (الحسنى) (الحسنى)، أو أصلا باعتبار رجوعها إلى أصل لغوي واحد مثل: (إحسانا) و (محسن) وغير ذلك، فالنوع الثاني يرجع إلى الأصل، أما النوع الأول فإنه يرجع إلى نفس اللفظ، وكلها إذا اتحدت في لفظها واختلفت معنى، فإنها تندرج في ضمن مسمى الوجوه والنظائر، فتكون الكلمة واحدة لكنّ المعنى مختلف.

ومن شواهده ما في الصحيح من حديث الأعمش عن أبي وائل عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾[الأنعام]، جاء أصحاب النبي ﷺ إليه فقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟؟ فقال: «ليس كما تقولون: الظلم: الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح - يعني: لقمان - ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾[لقمان]»، فالظلم وقع معانٍ متعددة منها: الانتقاص على النفس والإساءة إليها كقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾[النحل])، وجاء أيضا على معنى الشرك كهٰذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾[الأنعام:٨٢]، يعني: بشرك، كما فسره النبي ﷺ، فتكون كلمة الظلم وقعت على معنى الانتقاص من النفس والإساءة إليها تارة، ووقعت على معنى آخر وهو الشرك تارة أخرى، والفرق بين الوجوه والنظائر وكليات التفسير أن اللفظ في كليات التفسير يطّرد معناه ولا يتغير، وأما في الوجوه والنظائر فإن اللفظ مع كونه واحدا فإنه قد يتغير معناه، وفائدة ذلك الأمن من الغلط في تفسير كلام الله ﷻ بحمل اللفظ على معنى واحد مطّرد، فمثلا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ [القصص:٢٣]، ومعنى أمة: جماعة وطائفة، وقال تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ [النحل:١٢٠]، فلو فسر واحد: أن إبراهيم كان أمة بالمعنى الأول: ماذا يقول؟ كان جماعة، وهٰذا معنى غلط، وإنما المعنى هنا: كان أمة يعني: كان قدوة في الخير، فكلمة أمة وقعت على معانٍ متعددة مع كونها لفظة واحدة؛ بعضم جعلها ستة معان وبعضهم جعلها ثمانية معانٍ.

والمتن المعتمد في دراسة الوجوه والنظائر القرآنية هو كتاب «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر» للعلامة أبي الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى، فهو كتاب نافع جَمَع فيه أجود ما جمعه مَنْ سبقه

وأهمل ما وقعوا فيه من وهم وغلط، فهو كتاب مجموع من عدة أصول مختلفة، وجرّده رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى مما استبان له أن فيه وهما أو غلطا، وهٰذا الكتاب يفتقد أيضا إلى شرح أو حاشية عليه، لكن تحقيقه الذي خرج معه كما يسمى بالتحقيق نافع وفيه فوائد، لكنه مفتقرٌ إلى شرحٍ يُبيّن ما يُحتاج إلى تحقيقه من هٰذه الوجوه والنظائر، فإن بعض الناس قد يذكر للفظ وجوها ونظائر مع إمكان ردها إلى معنى واحد، ولهذ يُنتفع في دراسة هٰذا الكتاب بكتب ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، ولا سيما كتاب «مقاييس اللغة»، فإنه يعتني بِرَدّ الأصل اللغوي إلى معنى أو إلى معنيَيْن بحسب ما يظهر له رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، فلا بد من مقارنة ما يذكره المصنفون في هٰذا الباب بنظيره مما حرره علماء العربية في أصول المعاني، ومنهم ابن فارس في كتاب مقاييس اللغة.

أما المرتبة الخامسة فهي دراسة هِدايات السور، والمراد بهِدايات السور: الغايات المرادة من سور القرآن الكريم إجمالا، وهي التي سماها المتأخرون بمقاصد السور، وسماها بعضهم بأغراض السور، والمناسب لما جاء في القرآن الكريم تسميتها بهِدايات السور، فإن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر في مواضع عدة أن القرآن كتاب يهدي، فإذا أراد أن يُبيّن الإنسان غاية سورةٍ ما مِن سوره، فإنه يذكر أن هٰذه هي هداية السورة، وكل سورة فلها هداية إجمالية ولها هدايات تفصيلية:

فالهداية الإجمالية هي التي يُشار إليها بمقاصد السورة أو أغراض السورة أو مطالب السورة.

والهدايات التفصيلية هي الأحكام التي تُستنبط من كل آية من آياتها، فإن هٰذه تسمى هدايات، ولا تسمى فوائد، وإنما تسمى هدايات، لأن القرآن كتاب هداية، وإنما يُقرأ ويُتدبر ويُتعرف إلى معانيه لاستخراج ما به من الهداية.

ومن مُثُل ذلك ما شُهِر أن سورة الإخلاص هدايتها بيان التوحيد المتعلق بإثبات ما لله عَزَّوَجَلَّ من كمال، فهو توحيد عِلْمي خبري بيّن الله عَزَّوَجَلَّ فيه أنه واحد أحد صمد لم يلد ولم يكن له كفوا أحد، فمقصود السورة هو بيان التوحيد العِلْمي الخبري المتعلق بباب المعرفة والإثبات لربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكل سورة من سور القرآن فلها هدايات، لكنّ ظهور ذلك في الخلائق يتفاوت ويختلف من عبد إلى آخر، ومن أحسن ما اعتنى بذلك وبَيّن موجب الاعتناء به من المتأخرين العلامة ابن عاشور، وقد قال في مقدمة تفسيره: (ولم أُغادر سورة إلا بَيّنْتُ ما أُحيط به من أغراضها، لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن

مقصورا على معرفة بيان مفرداته ومعاني جُمَلِه؛ كأنها فِقَرٌ متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله) اهـ، وأعظم مدخل يدخل به الإنسان إلى فهم سورة من سور القرآن هو الإحاطة بهدايتها أو ما يسمى بغرضها أو مقصدها أو مطلبها أو غير ذلك من الألفاظ التي اصطلح عليها الناس بِأَخَرة.

وهٰذا الفن مع جلالته يوجد فيه كتاب يحتاج إلى تهذيب اسمه «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» للعلامة البُقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، وهو كتاب نافع لكن فيه طول، والمتن المعتمد أصلا لدراية هدايات السور أو مقاصدها هو كلام ابن عاشور في تفسيره، وقد جرّده أحد المعاصرين في كتاب سماه «أغراض سور القرآن الكريم في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور»، فهٰذا المجرد الذي أُخرج هو المختار كي يكون متنا لمعرفة مقاصد السور، وهٰذا المتن وهو المجرد من كتاب ابن عاشور مفتقر أيضا إلى شرح وحاشية تُبيّن معانيه وتُجلّي المراد منه.

ولعلكم وقد استوفيْنا ما يتعلق بالإشارة إليه اليوم وهو هٰذه المراتب الخمس؛ لعلكم رأيتم عِزّةَ المُصَنَف فيها مما يحتاجه الناس، فالمرتبة الأخيرة وهي مرتبة مقاصد السور لا تأتي فيها المصنفات المجردة أزيدَ عدّاً من أصابع اليد الواحدة مع جلالة هٰذا الأمر وشدة الاحتياج إليه وتوّقف الفهم الصحيح لسور القرآن على معرفة مقصد كل سورة منه، ومع ذلك فإن المصنَفَ فيه قليل، لأن علم التفسير صُرِف عنه الناس بأمور كثيرة وقلّ العارف به، وزاد الأمر سوءاً الجهل بالطريق الموصل إليه، فصار علم التفسير علما قليلا في الناس مع شدة الانتفاع به في العلم كله كما صح عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما رواه ابن أبي شيبة وغيره أنه قال: (من أراد العلم فليُثَوِّر القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخِرين)، يعني: فليُحرِك القرآن بالنظر فيه وحُسْنِ تفهمه وتدبر آياته، فإن فيه علم الأولين والآخِرين، فإذا أدمن الإنسان القرآن الكريم قراءة وتدبرا ومعرفة للمعاني فُتحت له من أنواع العلوم في كل فن من الفنون ما ليس يوجد عند غيره.

وأزْيد من ذلك أن يُفتح له قوة الصلة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإن الصلة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ قوتها بحسب قوة القرآن في نفس العبد، وعُظّمت الصلاة في هٰذا لأن عمودها القرآن، فالصلاة محل لقراءة القرآن الكريم، فجلّ أثرها في تقوية صلة العبد بربه لأن عمادها هو القرآن الكريم، فمن قَوِيَت صلته بالقرآن الكريم قَوِيَ إيمانه وزاد يقينه وحصّل أعظم المطالب في الدنيا والآخرة، فحقيق بنا معشر المؤمنين وقد خصنا الله عَزَّ وَجَلَّ بالقرآن

الكريم أن يكون لنا منه أعظم الحظ والنصيب؛ قراءة وتفهما وتدبرا ومعرفة لمعانيه وتفسيره، نسأله ﷻ أن يرزقنا فهم القرآن، وأن يعلمنا منه ما جهلنا، وأن يذكرنا منه ما نسينا، وأن يجعله إمامنا وقائدنا إلى جناته جنات النعيم.

۞۞۞

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[آل عمران] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾[النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾[الأحزاب].

أما بعد، فإن أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

وبعد -أيها المؤمنون- قد سبق القول بأن علم التفسير علم جليل القدر عظيم الخَطَر، وأنه كسائر العلوم له جادة توصل إليه وطريقٌ مَنْ أخذ بها أفضت به إلى معارفه وعلومه، ومن حاد عنها أرهق نفسه في تعب كثير مع فائدة قليلة، ولم يزل شُداةُ العلم يُدرِكون ذلك ويوقنون به، لأن كل مطلوب خاص أو عام، فإنه لا بد من طريق يوصل إليه وينتهي بسالكه إلى مُنْيَتِه منه.

وتقدم نَعْتُ جملة من المراتب التي إذا أخذ فيها المترقي أوصلته إلى علم التفسير، فَنَعَتْنا فيما سبق خمس مراتب:

فالمرتبة الأولى: دراسة كليات الألفاظ في التفسير، والمتن المعتمد المرشح للدراسة فيها هو «حُسن البيان في نَظْمِ مُشتَرَكات القرآن» للعلامة عبدالهادي بن رضوان الأبياري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والمرتبة الثانية: دراسة غريب القرآن، والمتن المعتمد المرشح فيها للدراسة كتاب «تحفة الأريب فيما في القرآن من الغريب» للعلامة أبي حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

والمرتبة الثالثة: دراسة كلمات القرآن، والمتن المعتمد المرشح للدراسة فيها هو كتاب «كلمات القرآن

توضيحٌ وبيان» للعلامة محمد حسنيْن العدوي الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

والمرتبة الرابعة: دراسة الوجوه والنظائر القرآنية، والمتن المعتمد المرشح فيها هو «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر» للعلامة أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

والمرتبة الخامسة: دراسة هدايات السور التي سماها المتأخرون بمقاصد السور أو بغايات السور وأغراضها، والمتن المعتمد المرشح للدراسة فيها هو كتاب «أغراض سور القرآن الكريم في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى»، وقد جرّده أحد المعاصرين وأبقى فيه كلام ابن عاشور بنَصّه وفصّه، فهو متن صالح للأخذ به دراسة في هٰذه المرتبة.

فهٰذه المراتب الخمس هي المراتب الأُوَل في دراسة تفسير القرآن الكريم، وبقيت بعدها عدة مراتب.

فالمرتبة السادسة من مراتب دراسة القرآن الكريم هي دراسة مجمل التفسير، والمراد بمجمل التفسير: التفسير الوجيز الكفيل ببيان المعاني الكلية لآيات القرآن الكريم، فهو تفسير مختصر وجيز لا يُطيل فيه واضعه في بيان معاني القرآن، وإنما يُبيّنها على وجه الاختصار والاقتصار دون إطالة وإطناب، فيكون جُلُّ مقصوده بيان معنى الآية دون الاسترسال في ذكر المنقولات فيها.

وهٰذا التفسير المجمل مَرْتبة قبل التفسير المفصل، ولا يرتقي إلى التفسير المفصل إلا من دَرَسَ القرآن الكريمَ تفسيرَه على وجه الإجمال، لأن الدراسة المجملة لمعاني آيات القرآن الكريم رتبة [يترقَّى] بها المرء في فهم كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا وُجِدت هٰذه الرتبة في نفسه سَهُل عليه بعدُ أن يتلقى مفصل التفسير.

وفائدة دراسة التفسير الوجيز: الاطلاع على المعاني الكلية الإجمالية للقرآن الكريم، فإذا درس الدارس تفسيرا وجيزا للقرآن الكريم اطلع على معاني القرآن على وجه الإجمال، فهو بمنزلة التصور الكلي الشامل للقرآن الكريم دون تفصيل جُمَله، لأن تفصيل جُمَله ربما تَثقُل النفوس عنه، وإذا اشتغل المرء في مبادي أخذه التفسير بتفصيل تفسير القرآن الكريم ربما لم يقطع فيه شوطا طويلا، وجرت عادة أهل العلم رحمهم الله تعالى في كل فن على تقديم وجيز مختصر بحيث يتلقاه مُتلقيه على وجه الإجمال في مدة يسيرة، ثم يترقى بعد ذلك إلى مفصل ذلك العلم.

وكذلك تفسير القرآن ينبغي للمرء أن يتلقاه أولا على وجه الإجمال الموجز، ثم بعدُ إن بقِيت فيه قوة

وقدرة؛ يترقى بعد ذلك إلى دراسته على وجه التفصيل كما سيأتي بيانه.

والتفاسير الوجيزة المصنفة على هٰذا النحو كثيرة، وأكثرها نفعا وأعظمها دورانا هو «تفسير الجلالَيْن»، واسمه «المفصل في تفسير القرآن الكريم»، لكنه شُهِر بتسميته تفسير الجلالَيْن نسبة إلى المصنِفَيْن اللذَيْن تَشارَكا في وضعه، فإنّ كتاب تفسير الجلالَيْن ابتدأ أولا جلال الدين المحلي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في كتابته من سورة الكهف حتى أتى سورة الناس، ثم رجع يريد أن يَشرَع في تفسير القرآن من أوله، فابتدأ بتفسير الفاتحة ثم اخترمته المنية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، فنهض بِحِمل عبئه بعده الجلال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى وقد أدرك زمان شيخه الجلال المحلي وجلس في مجالس درسه، لكن ليس له أخذٌ بيّنٌ عنه، فابتدأ بعدُ الجلال السيوطي في استكمال تفسير الجلال المحلي شارعًا من سورة البقرة حتى وصل إلى الموضع الذي ابتدأ منه الجلال المحلي وهو تفسير سورة الكهف.

فنشأ من اجتماع هذين التفسيرَيْن؛ تفسير واحد نُسِب إليهما فسمي تفسير الجلالَيْن.

فالمراد بالجلالَيْن: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي لأنهما تَشاركا في وضعه، واقتصرا رحمهما الله تعالى على أصح الأقوال فيما ظهر لهما مع الإشارة إلى شيء مما يُحتاج إليه من القراءات وإعراب الآيات القرآنية.

فهو تفسير وجيز مليح لم يزل مستعملا في درس القرآن الكريم في بلاد مصر من عهد تأليفه حتى وقت قريب، فكان أصلا معتمدا في مصر ثم انتقل إلى الحجاز.

فهٰذا التفسير أكثر ما يُستعمل في هذين البلدين، حتى طُوِيَ الاعتناء بعلم التفسير في أكثر بلاد المسلمين وخمل ذِكْر تفسير الجلالَيْن عند شُداةِ علم التفسير مع أنه أنفع التفاسير الوجيزة في فهم كلام الله ﷻ، وإنك لن تجد تفسيرا من التفاسير اعتنى به أهل العلم درسا وشرحا وتحْشيةً أكثر من تفسيرين اثنين:

أحدهما: تفسير الجلالَيْن.

والآخر: تفسير البيضاوي.

وإنما غلب تفسير الجلالَيْن تحْشيةً وشرحا؛ لأنه كان أصلا معتمدا لتلقي التفسير في البلاد المصرية والبلاد الحجازية، ثم انتقل بعد ذلك إلى بلاد الهند والأفغان.

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

وأما البيضاوي فشُهِر لأنه كتاب اعتنى به علماء الأتراك والأكراد ولم يزل أصلا معتمدا عندهم في تفسير القرآن الكريم.

إلا أن تفسير الجلاليْن مقدم بالعناية في الدرس كي يكون تفسيرا وجيزا يتلقاه المرء، وأعظم ما ينتفع الإنسان معه بحاشيتن اثنتين:

إحداهما: حاشية الجَمَل.

والأخرى: حاشية الصاوي.

فهاتان الحاشيتان نافعتان في استصحابهما عند دراسة هٰذا التفسير عند أحد علماء التفسير.

أما المرتبة السابعة فهي دراسة تصريف القرآن، وليس المراد بالتصريف ما يُنسب إلى علم النحو من أبْنِية الأفعال والأسماء، وإنما يراد بذلك ما ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الإسراء:٤١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[الكهف:٥٤]، في آيٍ أُخر أشار الله ﷻ فيها إلى التصريف في القرآن، وهو الذي سماه المتأخرون بمتشابه القرآن. وهٰذه التسمية لا تُناسب الوضع الشرعي لمعنى التصريف، وهم في بناء هٰذا العلم تارة يخلطونه بأشياء أخرى لا مدخل لها في علم تصريف القرآن، وعلم تصريف القرآن مرجعه إلى ملاحظة كيفية تصرف الرب ﷻ في آياته.

فتارة قال الله ﷻ: ﴿قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾[آل عمران:٢٤]، وتارة أخرى قال: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠].

وتارة جاء في دعاء إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة:١٢٦]، وتارة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[إبراهيم:٣٥].

في نظائر أخرى بالزيادة والنقص والادراج والحذف والتقديم والتأخير، فهؤلاء المُثُل هن المندرجات في مسمى تصريف القرآن الذي سمَّاه المتأخرون بمتشابه القرآن، وهٰذا المعنى الذي جعلوا له هٰذا اللقب معنى واسع تدخل فيه أنواعٌ شتَّى، لكنّ اللقب الذي يَخلُصُ على المعنى المراد شرعا هو تصريف القرآن الكريم، فمن أراد أن يدرُس تفسير القرآن الكريم فلابُدَّ له أن يدرس تصريف القرآن الكريم الذي سماه

المتأخرون متشابه القرآن وصنفوا فيه تصانيف متعدِّدة، والمتن المعتمد أصلًا في درايته هو «كشف المعاني في متشابه المثاني» للعلامة محمد بن إبراهيم بن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، فإنه كتابٌ حَسنُ الوضع بديع الجمع ألّفه بعد تدريسه التفسير مدة مديدة وعُروضِ سؤالات لطيفةٍ ومنازل عجيبة تحتاج إلى حلِّها، كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في مقدمته: (ربَّما لهَجَ بعضُ فُضلاء الحاضرين - يعني: في درسه - بمسائلِ حسنةٍ مستغربةٍ، وسأل عن مناسباتِ ألفاظها لمعانيها العجيبة مما لم يُذكر بعضُه أو أكثره في كتب التفسير المشهورة ولا ألـمّت به في أسفارها المسطورة؛ من اختلاف ألفاظٍ معانٍ متكررة وتنويع عباراتِ فنونه المحرَّرة، ومن تقديم وتأخير، وزيادات ونقصان، وبديعٍ وبيان، وبسيط واختصار، وتعويض حروفٍ بحروفٍ أغيار) اهـ، ولا يتمكَّن المرء في علم التفسير حتى يدرس تفسير تصريف القرآن، وسيجد إن أعْمَلَ ذهنه تدبُّرًا للقرآن الكريم؛ فنونا من القرآن الكريم في فهمه لم يذكُرها أحد قبله، لأن الله ﷻ جعل إعجاز القرآن في آياته من جهة بيانها، وإذا قلَّب الإنسان النظر في التَّقديم والتأخير والزيادة والنقص في القرآن الكريم سيظهر له من المعاني أشياء كثيرة لم يتكلم بها مَنْ قبله.

وأنا أضرب لكم مثالا بطرف يتضح به المقال مما يناسب الحال دون استيفاءٍ لمقاصده، وهو قولُنا عند قراءة القرآن: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن الله ﷻ أمرنا بذلك فقال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾[النحل] .

وإلى ذلك أشار الشَّاطبي إذ قال:

إذا ما أردت الدَّهر تقرأ فاستعذ جهارًا من الشَّيطان بالله مُسْجَلا
على ما أتى في النحل يُسرًا وإن تَزِد لربك تنزيها فلست مُجَهَّلا

وهٰذا الذكر المأمور به استحبابًا عند تلاوة القرآن الكريم لمن أراد أن يستنبط تصريف القرآن فيه؛ لَمَحت له معانٍ منها: أن الله ﷻ مع أمره لنا بالاستعاذة عند القرآن الكريم؛ فإنه لم يجعل الاستعاذةَ آية من القرآن، فقد أجمع أهل العلم على أن الاستعاذة ليست آيةً وأنه لا تجوز كتابتها في المصاحف.

وليت شِعري لماذا وقع هٰذا؟ ما الجواب؟

إمعانا في بيان ضَعفِ كيد الشيطان، فإننا مع أمرنا بالاستعاذة إلا أننا بالله أقوياء، فإذا أُمر العبد بأن يستعيذ من الشيطان الرجيم، فإنَّ الشيطان لم يبلغ قَدْرُ كيده أن يكون عدوا يصد الإنسان عن القرآن الكريم، وإنما أُمرنا به تقويةً ولم تُجعل آية تنبيهًا إلى أن الشيطان مهما بلغ كيده فإنه كيده كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾[النساء] .

معنىً آخر: أننا لما أُمرنا بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند بداية القرآن الكريم؛ أُمرنا بأن يكون قول الإنسان كما جاء في المأثور عن النبي ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ولم يقع القول بنعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وإنما وقع على وجه الإفراد، فلماذا يُشرع للعبد أن يقول: أعوذ، ولا يقول: نعوذ بالله من الشيطان الرجيم؟ ما الجواب؟

الجواب عن ذلك وجهان:

أحدهما: مناسبةً للأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾[النحل] ، فإنه وقع مُفْرَدًا، فالمناسب للأمر المفرد أن يكون الوقوع والامتثال بمفرد.

وثانيهما: أن الأصل في العبادات إيقاع العبد لها عن نفسه لا عن غيره، ولذلك يقول العبد في الشهادة عند الإقرار: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، ولا يقول: نشهد أن لا إلٰه إلا الله، ونشهد أن محمدا رسول الله على وجه الإقرار للعبادة، وأما على وجه الخبر فإن ذلك سائغ.

معنىً آخر من معاني التصريف في الاستعاذة؛ أننا أُمرنا بأن نجعل قبل القرآن ما يتميَّز به وهو قولنا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولم نؤمر بأن نجعل بعد قراءتنا للقرآن شيئا يتميز به، فإن الإنسان إذا شرع في قراءة القرآن قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم شرع يقرأ، فإذا ختم قراءته للقرآن الكريم، فإنه ليس في المأثور شيء ثابت، وأحسن ما روي فيه ما بوّب عليه النَسَئي في كتاب السنن الكبرى بم تُختم قراءة القرآن، ثم أورد حديث عائشة أن النبي ﷺ كان إذا جلس مجلسا أو قرأ قرآنا قال: سبحانك اللّٰهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت ... إلى آخر كفارة المجلس، إلا أن هٰذا اللفظ غير محفوظ، ولا يُعلم أحد من الفقهاء قال به.

فلماذا وقع الأمر بتمييز قرآتنا للقرآن قبل الشروع فيها ولم يؤمر بأن نأتي بذكر في آخر القراءة بعد الفراغ منها؟ ما الجواب؟

الجواب: أن القرآن إذا قُرأ لم يحتج إلى شيء يُمَيِّزه، ولكن الانفصال عما قبله من الكلام يحتاج إلى تمييز، فلو قُدِّر أن أحدنا يتحدث ثم أراد يشرع في قراءة القرآن قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإذا قرأ القرآن فإن كل سامع يسمعه يقع في قلبه من الهيبة والجلال لهٰذا الكلام الذي يسمعه ما يتميز به عنده أن هٰذا ليس كلام أحد من البشر، وإنما كلام رب البشر ﷻ.

فهٰذا الفن وهو فن تصريف القرآن الذي سماه المتأخرون متشابه القرآن؛ فن عظيم والعناية به قليلة والتصانيف فيه كليلة من أمْثِلِها كتاب ابن جماعة الذي ذكرتُ لك، وهو كتاب مفتقر إلى شروح وحواش توضع عليه، لكنه هو المتن المعتمد في هٰذا الفن.

وأما المرتبة الثامنة في تلقي تفسير القرآن الكريم، فهي **دراسة مفصَّل التفسير**، والمراد **بمفصل التفسير: التفصيل المستَوْعِبُ المفرَد لكل آية من آيات القرآن على وجه التفصيل لا على وجه الإجمال**، لأن المتلقي قد تلقى قبلُ تفسير القرآن على وجه الإجمال، ثم يرتقي بعدُ إلى تلقيه على وجه التفصيل، وهٰذا التفصيل تُناسِبه الإطالة والإطناب حينئذٍ، وفائدته الإعانة على كمال الفهم للقرآن الكريم، لأنَّ من يتلقى القرآن أو غيره على وجه الإجمال يحصل له تصورٌ كلي عام، فإذا تلقى ذلك المجمل على وجه التفصيل تَصَوَّرَه تصورا تاما وفَهِمَهُ فهما صحيحا، فإذا فرغ المرء من تلقي التفسير المجمل ارتقى بعد ذلك إلى تلقي التفسير المفصل، والمراد به المطول، وفيه مصنفات كثيرة من أمْثِلِها أصلا معتمدا في درايته «جامع البيان في تفسير القرآن»، وهو من تصنيف الحافظ محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ تعالى، وهو كتاب حافل جليل أجمعت كلمة الأوائل على تعظيمه وإجلاله، ولم يكن في القرون الأولى تفسيرٌ يُعظَّمُ ويُجَلّ ويُتلقى كتفسير ابن جرير الطبري، وفيه قال أبو بكر بن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ تعالى: (لو أن أحدا رحل إلى الصين فيه لكان ذلك قليلا)، أي: لو أن إنسانا أراد أن يتلقاه فرحل لأجله إلى بلاد الصين كان ذلك قليلا، فهو كتاب نفيس نافع قال في مقدمته رَحِمَهُ اللهُ تعالى مُبيِّنا مراده: (ونحن في شرح تأويله وبيان ما فيه من معانيه مُنشِئون إن شاء الله تعالى كتابا مستوعبًا لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه جامعًا، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافيًا، ومُخبِرون في كل ذلك بما انتهى

إلينا من اتِّفاق الحجة فيما اتفقت عليه الأمة واختلافها فيما اختلفت فيه منه، ومُبيِّنوا عِلَل كل مذهب من مذاهبهم، وموِّضحوا الصحيح لدينا من ذلك بأوجز ما أمكن الإيجاز في ذلك وأخصر ما أمكن فيه الاختصار)، فهو تفسيرٌ محرَّرٌ فيه كثير من أصول معرفة التفسير، ومَنْ أُشرِب قلبُه تفسير ابن جرير الطبري استفاد في علوم كثيرة، ولا سيما علم كلام العرب في قواعد فقه اللغة، فإنه يذكر شيئا من ذلك يُشير إليه بقوله: ومن سُنن العرب في كلامهم، وهٰذا قلّ وجدان نظيره في كتب التفاسير الأخرى، كما أنه كتاب حافل بتفاسير السلف رحمهم الله تعالى مع الترجيح وبيان الصحيح وتزييف ما ليس بصحيح، فهو تفسير عظيم جليل، لا ينبغي أن تقعد همة المرء عن قراءته وتكرار النظر فيه، وما جلّ تفسير ابن كثير عند المتأخرين إلا لأنه في الحقيقة اختصار لتفسير ابن جرير، فإن ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عمد إلى تفسير ابن جرير فلخصّه مع زيادات حسنة وتعقبات مليحة على كلام ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

وهٰذا الكتاب وهو كتاب ابن جرير لم يحفل بشيء من الشروح والحواشي مع أنه أولى التفاسير بذلك سوى ما كتبه عليه ابنا شاكر العلامة محمود وأخوه أحمد رحمهما الله تعالى، فيستفاد مما كتبا فيما انتهى إليه كتابتهما رحمهما الله تعالى.

كما أنه يستفاد خاصة من تفسير ابن كثير في التعقبات التي نبه عليها فيما يتعلق بكلام ابن جرير الطبري، ومن أحسن الجهود التي ينبغي أن تُبذل جَمْعُ تعقبات المفسرين على تفسير ابن جرير، فإن تفسير ابن جرير أصل أصيل في علم التفسير، فلو قصَدَ إنسان إلى التفاسير التي جاءت بعده فجمع ما تعقبوا به ابن جرير لكان ذلك عملًا نافعا لجامعه خاصة وللمسلمين عامة، لأنه يُبيّن جهود الأمة المتعلقة بتفسير أصيل وهو تفسير ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

أما المرتبة التاسعة في تلقي علم التفسير فهي **دراسة هدايات السور مفصلةً**، وهي التي سماها المتأخرون بأحكام القرآن، **ويريدون بذلك الفوائد المستنبطة من آيِ القرآن الكريم**، وهٰذه المرتبة مرتبة أخرى غير مفصل التفسير، فإنَّ هَمَّ المفسر في مفصل التفسير هو بيان معنى الآية مُطنبا في ذلك ومفصلا بذكر ما يتعلق به من كلام السابقين وشواهد الشعر في كلام العرب والأحاديث والآثار المتعلقة بالآية وترجيح المذكور في

معانيها. وأما هداية السور مفصلة التي سماها المتأخرون أحكام القرآن، فالمراد بها استخراج كل ما يستفاد من آي الكتاب الكريم ، ولذلك فإن القرآن كما سلف كتاب هداية، وهداية القرآن في سوره نوعان:

أحدهما: الهداية الإجمالية، وهي التي تسمى بمقاصد السور أو أغراض السور.

والآخر: الهداية التفصيلية، وهي التي تتعلق بالآيات واحدة واحدة. فمثلا لو قُدِّر في بيان الهداية الإجمالية لسورة الإخلاص أن قيل: إن سورة الإخلاص في بيان التوحيد العلمي الخبري، فهٰذه هي الهداية الإجمالية للسورة، وأما الهداية التفصيلية فيُعمد فيها إلى كل آية من آياتها واحدة واحدة، فيُستخرج ما فيها من الهدايات، فيقال مثلا: فيها تسمية الله ﷻ باسم الله، وفيها تسميته ﷻ باسم الأحد ووقع مُنكّرا وجيء به معرفا في السنة النبوية، وفيها إثبات صفة الألوهية له، وفيها إثبات صفة الوحدانية له إلى غير ذلك من المعاني التي تُستنبط من السورة.

وهٰذه المعاني هي هدايات القرآن الكريم، ولو أن المرء إذا قرأ القرآن الكريم جعل نَصبَ عينيه استخراج هدايات القرآن لتفجرت له ينابيع الفهم في القرآن، وربما درس الإنسان علم التفسير في كتاب كامل ثم لم يلحظ هٰذا الأصل، كما ذكر عبدالحميد بن باديس رحمه الله تعالى أنه درس في الزيتونة كتاب تفسير البيضاوي ثم تخرّج ولم يَلُحْ له أن القرآن كتاب هداية حتى رجع إليه مرة أخرى بالنظر والتدبر فيه.

وكثير من المشتغلين بالتفسير يُحجبون عن هدايات القرآن الكريم بكلام المفسرين، ومن أراد أن يفهم هدايات القرآن الكريم في آياته فإنه يُجرّد النظر لنفسه بعد اكتمال الآلة، فيُجرد النظر في آيات الله ﷻ في كتابه، وسيقف على معان بديعة إما بفهمه أو بما يجمعه من كلام أهل العلم في ذلك.

ومن لطيف ذلك مثلا أن الله ﷻ قال: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾[الإسراء:٨١] ، ولم يقل ﷻ: فزهق الباطل بفاء التعقيب، وإنما وقع على هٰذا المعنى للإشارة إلى أن الباطل في نفسه كان زهوقا ضعيفا، فلم يظهر هوانه لما جاء الحق، بل هو زاهق من قبل ذلك، أشار إلى ذلك ابن عبدالسلام الناصر رحمه الله تعالى من علماء المغرب، وإذا نظر الإنسان في كلام المُفَنِنِين في التفسير وما يستخرجونه من هدايات القرآن الكريم وجد أن أعظم زاد لهم هو إدمان النظر في القرآن الكريم وكثرة قراءته، فقد روى ابن أبي حاتم في مقدمة الجرح والتعديل عن عبدالله بن وهب المصري قال: (كنا نعجب من نزع مالك من القرآن، فسألنا أخته،

فقالت: أما إنه إذا دخل البيت لم يكن له شغل إلا قراءة القرآن الكريم)، فإذا قرأ الإنسان القرآن الكريم على هٰذه النية، وهي استخراج الهدايات من القرآن الكريم، فسيقع له كثير من الفهم في كلام الله ﷻ، والمتن المعتمد أصلا في دراية هداية القرآن الكريم هو كتاب «الجامع في أحكام القرآن» للعلامة أبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، وهو كتاب عظيم بديع من أحسن ما صنَّفه الناس في أحكام القرآن الكريم، وعماد هٰذا التفسير على تفسيرين هما «المحرر الوجيز» لابن عطية، و«أحكام القرآن» لأبي بكر بن العربي رحمهما الله تعالى، فأخَذَ هذين التفسيرين وزادهما بيانا وأكثر من استنباط الأحكام حتى صار كتابه من أحسن كتب أحكام القرآن المتداولة.

وقد شرع العلامة محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في إملاء شيء من هٰذا، فأملى شيئا كثيرا من أحكام القرآن طبع في ثلاثة مجلدات، وانتهى إلى أثناء سورة البقرة، ولغيره من العلماء كذلك جهود لكنها مبتورة لم تكتمل في القرآن الكريم، وهو أولى الأنواع في التفسير بالعناية لأنه غاية علم التفسير، فإن غاية علم التفسير ليست معرفة معانيه فقط، وإنما النظر فيما تؤول به الآيات من المعاني، وهٰذا هو معنى التدبر فإن الله ﷻ قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[محمد]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النساء]، وليس المراد بالتدبر معرفة المعاني ولا الكلام فيه بالخواطر وما يقع في النفوس، كلا، وإنما التدبر هو نظر القلب في القرآن للوصول إلى مقاصد الآي، لأن التدبر مأخوذ من الدبر وهو آخر الشيء، فينظر الإنسان في الآية ليستنبط ما فيها من الأحكام والمعاني، وهٰذه مرتبة رفيعة لا يصل إليها أي أحد:

وإنما يصل إليها من كانت له مكنة في علم التفسير أولا.

ثم إدمان للنظر في القرآن الكريم ثانيا مع شدة صلة به كما سيأتي بيانه في موضع آخر.

ولكن المقصود هنا هو الإشادة بالعناية بهدايات القرآن الكريم، وأنه ينبغي للإنسان إذا قرأ آية أن ينظر ما فيها من الهدايات، ومن رمق ما تكلم به الأولون رأى من ذلك عجبا، وللسيوطي كتاب نافع اسمه «الإكليل في استنباط التنزيل»، ومما ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في تفسير سورة المسد في قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾[المسد]، أنَّ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى استنبط منها تصحيح أنكحة الكفار وإقرارها كما

هي، لأن الله ﷻ أضاف أم جميل إلى أبي لهب وجعلها امرأته، وفي ذلك الإعلام بصحة نكاحهما مع كونهما كافريْن أصلا.

فمثل هٰذه المعاني لا تتأتى إلا بإعمال النظر في استخراج هدايات القرآن الكريم، ولا يقع للإنسان لذةٌ في علم التفسير وقراءة القرآن حتى يكون من أعظم شغله استنباط هدايات القرآن الكريم، وهٰذا هو اللائق أن تكون قراءتنا عليه، فنحن نقرأ القرآن الكريم لنستخرج منه المعاني والأوامر والأحكام التي أمرنا الله ﷻ بها، ولذلك جاء عن جماعة من السلف كالحسن البصري وغيره أن تدبر القرآن: العمل به، يعني: النظر في نتيجة التدبر ثم امتثال ذلك بالعمل به.

فهٰذه **المراتب التسع** التي ذكرنا هي المراتب التي مَنْ أخذ بها تلقى علم التفسير، ونعيدها مرة أخرى فنقول:

إن **المرتبة الأولى** هي **معرفة كليات الألفاظ في التفسير**، والمتن المرشح «حُسن البيان» للعلامة الأبياري.

والمرتبة الثانية دراسة غريب القرآن، والمتن المرشح «تحفة الأريب» لأبي حيان الأندلسي.

والمرتبة الثالثة معرفة كلمات القرآن(١)، والمتن المعتمد فيها هو «كلمات القرآن توضيحٌ» وبيان للعلامة حسنين مخلوف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

والمرتبة الرابعة دراسة الوجوه والنظائر القرآنية، والمتن المعتمد فيها «نزهة الأعين النواظر» للعلامة أبي الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

والمرتبة الخامسة دراسة هدايات السور الإجمالية التي سماها المتأخرون مقاصد سور القرآن الكريم، والمتن المعتمد فيها هو كتاب «أغراض السور في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور»، وهو حقيق بأن يسمى المقدمة العاشورية في مقاصد السور القرآنية.

والمرتبة السادسة دراسة مجمل التفسير، والمتن المرشح فيها هو «كتاب الجلالَيْن» للعلامة جلال الدين المحلي وتتمته لجلال الدين السيوطي.

---

(١) ولا تقل: ألفاظ القرآن، لأن اللفظ عندهم يقع على الكلمة ذات المعنى المستعمل والمهمل، فالأفضل أن تقول كلمات القرآن كما قال الله عز وجل ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٦]، فهو كلام الله ومفرد ذلك الكلام كلمات.

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

والمرتبة السابعة دراسة تصريف القرآن الذي سماه المتاخرون متشابه القرآن، والمتن المعتمد فيه هو كتاب «كشف المعاني عن المتشابه من المثاني» للعلامة محمد بن إبراهيم بن جماعة.

والمرتبة الثامنة دراسة مفصل التفسير، والمتن المعتمد فيه هو تفسير ابن جرير الطبري المسمى بـ«جامع البيان».

والمرتبة التاسعة دراسة هدايات السور المفصلة الذي يسمى بأحكام القرآن، والمتن المعتمد فيه هو كتاب «الجامع لأحكام القرآن» للعلامة محمد بن أحمد القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

فهٰذه المراتب التسع وفق المتون المعتمدة له تُتَلقّى بالدراسة على شيخ إما متمكن في علم التفسير أو متمكن فيما تعلق به من العلوم كعلم غريب القرآن أو كلمات القرآن؛ فيصلح أن تُدرَسَ على من له علم بلغة العرب وكلامهم.

ومن اجتهد إن شاء الله تعالى سيجد مَنْ يقرأ عليه هٰذه الكتب التسعة التي سميناها، وينبغي على المتصدرين لإفادة الناس في علم التفسير أن يأخذوا بهم في جادة مأمونة توصلهم إلى فهم كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأما الكلام الإنشائي في بيان معاني التفسير فإنه لا يُخرّج مفسرين، وتجد الطلبة ربما أنفقوا وقتا مديدا في الدراسة الجامعية في دراسة التفسير؛ فربما تخرّجوا بعد سنين من الدراسة لم يدرسوا نصف القرآن في التفسير وإنما درسوا سورا متفرقة، ولأجل هٰذا صار حال الأمة في علم التفسير ضعيفًا، فينبغي أن يأخذ الطالب بنفسه في سلوك هٰذه الجادة، وأن يُعين المتصدرين في علم التفسير للأخذ بها لتحصيل كمال الانتفاع في تفسير كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهٰذه كتب تسعة في مراتب تسعة تؤخذ تلقّيا عن الشيوخ، وكل هٰذه المراتب مندرجة في إحدى القوتين اللتين تُحصَّل بها العلوم، فإن العلوم تُحصَّل بقوتين ذكرهما قدماء فلاسفة اليونان، ثم بسط المعنى أبو العباس ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» وغيره:

فالقوة الأولى: قوة الفهم.

والقوة الثانية: قوة الحفظ.

ولا يظنن امرؤ أنه يدرك علما من العلوم بلا حفظ، قال شيخ شيوخنا ابن مانع رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (أجمع العقلاء على أن العلم لا يُنال إلا بحفظ)، فكما أن الطالب يتلقى في علم التفسير مفهومات فإنه لا بد أن يأخذ على نفسه في محفوظاتٍ تُكوِّن لديه ملكةً تفسيرية إذا ضُمَّ إليها غيرها مما سنُبيِّنه في مجلس آخر بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فثمَّةَ جملة من الكتب التي يحسُنُ أن يحفظها الطالب، فأولها «حُسن البيان في نظم مشتركات القرآن» للعلامة الأبياري،

فقد قال في آخره:

فاحفظ فدَيْتك هٰذا النظم ترْقَ إلى أوْج المعالي واظفر بالذي عَسُرا

فهو متن لطيف نافع في كليات الألفاظ كقوله مثلا:

وكل ريبٍ فسَّروه بشكٍ سوى ريبِ المنونِ فكَيْد الدهر ما خَطَرا

فتستفيد من هٰذه الكلية أن كل ريب فُسِّر بالشك إلا في ريب المنون في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾[الطور] ، ففُسِّر بكيْد الدهر، يعني: بتصريفه وأحواله، وفُسِّر أيضا: بالموت، فحِفْظُ هٰذه المنظومة وهي في بضعة وستين بيتا يُكوِّن لدى المتلقي ملكة تفسيرية في فهم كثير من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأما المحفوظ الثاني فهو «البيان لما خفي معناه من القرآن»، والذي يخفى معناه من القرآن هو الذي يسمَّى بالغريب، وتقدم ذكر المتن المعتمد فيه وأنه كتاب «تحفة الأريب» للعلامة أبي حيان الغرناطي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، إلا أن هٰذا الكتاب مع جلالته وإمامة مصنفه؛ جَعَلَه على الأصول اللُّغوية، والوصول إلى الأصول اللغوية يشق على المتلقّين، وكذلك وضعه على السور القرآنية ربما خفي موضع الآية المرادة في أي سورة فيعسر الوصول إليه، فعَمدتُ إليه فرتبْتُهُ على الأحرف الأبجديَّة الأبتثية باعتبار الكلمة دون النظر إلى أصلها، ثم رأيتُ أن من البركة للمتلقي أن لا يقتصر على حفظ ما ذكره أبو حيان، بل ننظر إلى أصول ذلك فنُمِدُّه به فيحفظه الطالب ويقع له بذلك حفظ كثير من كلام السلف، فمثلا أول كلمة فيه: ﴿آتَوْا﴾ قال: أعْطَوا، وتفسير هٰذه الكلمة موجود قبل أبي حيان بعدة قرون، فإنها رُويت عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيما رواه عبد الرزاق في «تفسيره» وابن أبي حاتم في «تفسيره»، فالأكمل والأكثر بركة للعبد أن يحفظها كلمةً لابن

عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وإذا اطّرد هٰذا فيما خفي معانيه من القرآن الكريم مما ذكره أبو حيان الأندلسي، فإنه يحصل للمتلقّي فائدة زائدة عن حفظ معاني الغريب، فهو يحفظ معاني الغريب ويحفظ القائلين بتفسيرها من القدماء من الصحابة والتابعين، وهو عظيم النفع وهو الذي ينبغي أن يُعتنى به في علم التفسير، فإذا رأيت كلاما من كلام المفسرين فابحث عن أصله، لأن معرفة أصول العلوم يُسهّل تصورها، فتجد هٰذا التفسير في كلام ابن عباس أو في كلام ابن مسعود أو في كلام مَنْ بعدهم من التابعين أو أتباع التابعين، ولا ريب أن علوم السلف أكثر بركة وأقرب للصواب من علوم المتأخرين.

وأما المتن الثالث فهو «إمداد المستشير بأصول الأحاديث في التفسير»، وهو نظير كتاب «بلوغ المرام» للحافظ ابن حجر في الأحكام، فإن الآيات القرآنية مفتقرة إلى الأحاديث النبوية المتعلقة بها.

فمثلا في تفسير سورة الفاتحة عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضُلّال»، فإن هٰذا الحديث رواه الترمذي وهو أصل في تفسير آخر آية من سورة الفاتحة، فلا يحسن بطالب العلم أن لا يحفظ أحاديث النبي ﷺ في التفسير، ومثل حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أحمد الذي ذكرته لكم: «كل حرف في القرآن يُذكر فيه القنوت فهو الطاعة» رواه أحمد وصححه ابن حبان، فمثل هٰذه الأحاديث كيف يكون الإنسان مفسرا وهو لا يحفظ الأحاديث النبوية المتعلقة بعلم التفسير على وجه الخصوص، لأن سنة النبي ﷺ كلها بيان للقرآن، وقد جمع السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى كتاب «الدر المنثور» فأدخل فيه كل حديث ولو من وجه بعيد يتعلق بالآية، وليس هٰذا هو المراد الأعظم في أحاديث التفسير، وإنما المراد الأعظم في أحاديث التفسير ذكر ما تعلق بالآية على وجه الخصوص، وهٰذا الكتاب كنظيره السابق عسى أن يخرج هٰذه السنة في عالم المطبوعات.

وأما المتن الرابع فهو «ألفية» ابن العالم الوَرْجَلاني الأدراري الجزائري المتوفى سنة ألف ومائتين وعشرين، وهٰذه الألفية أحسن الألفيات المصنفة في ما يتعلق بتفسير القرآن الكريم، لأن الغالب على المصنفين في تفسير القرآن الكريم نظما اعتناؤهم بالغريب، وأما هو فإنه اعتنى بالغريب على وجه بديع وزاد الإبداع إبداعا؛ فنظم الوجوه والنظائر القرآنية وجعل منظومته ثلاثة أقسام:

فالقسم الأول في الغريب المتكرر في آيات القرآن الكريم لا في سورة بعينها.

والقسم الثاني في الغريب المتعلق بسورة مفردة وجاء به على ترتيب المصحف.

والقسم الثالث في بيان الوجوه والنظائر القرآنية.

وهٰذه الألفية عليها شرح اسمه «ضياء المعالم في شرح ألفية ابن العالم» للعلامة محمد باي بلعالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، ولعله توجد نسخة من هٰذا الشرح في مكتبة المسجد النبوي لأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كان حريصا على إمدادها بالكتب التي صنفها في التفسير والفقه وغيره من العلوم.

فهٰذه المتون الأربعة هي التي يحسن حفظها مع دراسة الكتب التسعة، فمتى استوفى الإنسان دراسة هٰذا العلم على هٰذا النسق فأنا كفيل له بأن يكون عنده علم بالتفسير على وجه قلّ وجدانه في المتأخرين للجهل بالطريق، وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (والجهل بالطريق وآفاتها والمقصود؛ يُضيّع العمر مع تعب كثير وفائدة قليلة)، فتجد من الطلبة من يذكر لك أنه قرأ تفسير الجلالَيْن، ثم قرأ تفسير ابن سعدي، ثم قرأ تفسير ابن كثير، ولكنه لا يحمل شيئا من فهم معاني القرآن كما يريد، وجواب ذلك: أنه أخذ علم التفسير على غير وجهه الذي ينبغي تلقيه، فإذا أخذه على وجهه الذي ينبغي تلقيه، فإنه يصل إلى منْيَته ومبتغاه منه، وربما أسدى الإنسان من عمره في إدراك هٰذا سنوات، ولكنها سنوات عظيمة في علم عظيم، وكثير من الطلبة إذا أرادوا أن يتلقوا علم الاعتقاد أو علم الفقه بل علم النحو وعلم الأصول سألوا عن كيفية الترقي فيه فَنُعِتَ لهم ذلك، وأما علم التفسير وهو أجل العلوم وأعظمها فتجد أن نظرة الطلاب إليه نظرة استضعاف لهم، فهو علم قد تقوَّى عليه كل أحد، فما من أحدٍ منهم إلا ويحشد في مكتبته جملة من التفاسير ثم يأخذ من هٰذه التفاسير ويقرأ ويقول: أفهم تفسير القرآن الكريم، لكن لو أُريد منه أن يتكلم في معاني القرآن الكريم فإنه سينفق وقتا طويلا للتحضير، فأين ما وقر في قلبه من علم التفسير؟ وما ذلك إلا أشياء من الخيالات وقرت في عقله فتبدى له أن عنده علما في التفسير وليس الأمر كذلك.

فينبغي أن يأخذ طالب العلم خاصة بل كل مؤمن في هٰذه الطريق التي توصله إلى علم التفسير وتأخذه بأَمَنَةٍ إليه.

ولكنني أقول لكم إن الطالب بعد أخذه لهٰذه الكتب تكون له معرفة بعلم التفسير، وأما كيْنونَتُه مفسِّرًا ذا قدرة على الاستنباط بما لم يأت به الأوائل، فإن هٰذه الطريق ليست كفيلة له بذلك، وإنما يحتاج إلى إمداد

نفسه بأنواع من المدد كي يكون مفسرا للقرآن الكريم، كما يوجد اليوم من يعرف الفقه لكنه ليس فقيها، وإنما يحيط بمذهب من المذاهب، وكان أبو محمد بن عبد السلام يسمي هؤلاء فروعيين ولا يسميهم فقهاء، لأن الفقيه هو الذي يُخرّج النوازل الواقعة على الأصول المتقررة، وأما الذي ينقل ما في الكتب أو ما عليه الفتوى فإن هٰذا لا يسمى فقيهًا كما ينبغي أن يكون الفقيه، وإنما هو فُروعي يحفظ فروع مذهبه أو ما أفتى به شيوخه.

فربما يُسأل مثلا عن حكم قراءة الخطبة في صلاة الجمعة فيقول: الفتوى على جوازها، لكن إن أُريد منه أصل تُخرّج عليه هٰذه النازلة مما لم يكن قبلُ لم يجد في مدونة علمه في علم الفقه شيئا، وأما الفقيه فإنه يُخرّجها على الآثار الواردة في قراءة القرآن الكريم من المصحف في صلاة التراويح، وهي قد وقعت في عهد الصحابة فمن بعدهم والخطبة أهون من الصلاة.

فكذلك المفسر الكامل ليس هو الذي يعرف ما قال فلان أو قال فلان أو نحو ذلك، وإنما المفسر على الحقيقة من يلاحظ معاني القرآن الكريم فيستنبط في ذلك ما لم يقل به أحد من قبله، ولكنه استنباط صحيح لأن القرآن يشهد له بالصحة، ولا ينبغي أن يقرأ الإنسان القرآن الكريم على تصوّرِ أنه يفهمه، بل ينبغي له أن يقرأه على تصوّرِ أنه إن فهم منه شيئا فقد غابت عنه أشياء؛ لأنه كتاب الله ﷻ، ولا يحيطون به علما، ومهما بلغ علم الإنسان فإنه إذا صدقت نيته يتجدد له من المعاني في كل آية يقرؤها كل يوم ما لم يكن يظهر له من المعاني السابقة، ولكن بشرط صدق إعمال النظر فيه مع اكتمال الآلة التي سنذكرها إن شاء الله تعالى غدا والتي يتهيؤ بها بناء ملكة المفسر، فإن هٰذا الذي ذكرنا إنما يترقى به الإنسان في كيفية تلقي علم التفسير، وأما بناء ملكة المفسر فوراء ذلك آلات إيمانية وعلمية متى استوفاها الإنسان كان مفسرا.

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا جميعا فهم كتابه، وأن يجعلنا من أهله وحزبه، وأن يعلمنا منه ما جهلنا، وأن يذكرنا منه ما نُسينا، والحمدلله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾[آل عمران] .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾[النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾[الأحزاب].

أما بعد، فإن أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

وبعد -أيها المؤمنون- سبق في المجلسيْن السابقيْن نعْتُ الطريق المأمون والجادة السالمة لمن سلكها يروم أن يتلقى تفسير القرآن الكريم، فمتى ترقى فيها مَرتبة مَرتبة، انتهى به ذلك الترقي إلى كمال التلقي بمعاني القرآن الكريم، وصارت له قدمٌ راسخة في فهم كلام الله ﷻ باعتبار ما انتهى إليه علمه فيما أخذه درسا وحفظا مما نعتنا كُتُبَهُ وبَينّا نُقَلَه في المجلسيْن السابقيْن.

ووراء هٰذه الطريق التي نعتناها وادٍ أفْيَح ومرتع خصب، إذا نزله القلب فُتح له من الفهم في كلام الله ﷻ ما ذاق به جنة القلب وغاية المطلوب، وهي التي شُغل بها السلف رحمهم الله تعالى، فكانوا يقرؤون القرآن فيزدادون له محبة ويعظم في نفوسهم، لأن القرآن صار ملء سمعهم وأبصارهم وقلوبهم، فلم يكن لهم شغلٌ إلا فيه، ولا تدبرٌ إلا معانيه، ولا تلذُّذٌ إلا بتكرار النظر فيه، وهٰذا المرتع الخصب والوادي الأفيح؛ هو حصول ملكة التفسير التي ينتقل بها متلقِّي التفسير من مجرد معرفته للمنقول في تفسير كلام الله ﷻ حتى يكون علم التفسير ممتزجا بروحه ظاهرا في كل علومه، فهو إذا تكلم في باب الفقه؛ ظهرت معرفته بتفسير كلام الله ﷻ، وإذا تكلم في باب السنة النبوية؛ ظهرت معرفته لكلام الله ﷻ، فإن الفقهاء مثلا

درجوا على استفتاح كتبهم في أغلب المذهب بكتاب الطهارة، وأكثر المتكلمين من الفقهاء لا يفهمون من الطهارة المذكورة في كتبهم إلا الطهارة الحسية، وقلّ منهم من يُوَجِّهُ أنظار الناس إلى طهارة أعظم وأجلى والمقام مناسبٌ لها وهي الطهارة المعنوية؛ طهارة القلوب التي جاءت في القرآن الكريم في مواضع عدَّة، بل إن المتكلم منهم عند ذكره أقسام المياه وإيراده الكلام على قسم مشهور منها وهو الماء الطهور؛ ينسى الوصل بينه وبين قول الله ﷻ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾[الإنسان] ، فإن المؤمنين المُسَلِّمين لأمر الله؛ لمّا علموا أن إزالة الأحداث والأخباث لا تكون إلا بماء طهور؛ كان الجزاء لامتثالهم في هٰذا الباب أن سقاهم الله ﷻ شرابا طهورا.

وإذا تكلم في السنة النبوية مثلا أشعر المستمعين بأن السنة النبوية تتعلق بما وقع بعد البعثة النبوية، لأن الله ﷻ قال لرسوله ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾[الضحى] ، فالزمن الذي كان قبل بعثة النبي ﷺ لا تعلق له بالسنة النبوية، وإنما ما كان بعد هدايته ﷺ إلى ما أُريد منه؛ ذلك هو الذي يتعلق به علم السنة النبوية. والمقصود بذلك أن يكون علم التفسير ملكةً للعبد، **والمراد بالملكة: الهيئة الراسخة الثابتة**، فإذا استولى علم التفسير على قلبه واستقام في نفسه وامتزج بروحه؛ ظهر على سائر علومه، وهٰذه هي المرتبة العظيمة فوق ما نعتناه آنفًا من كيفية تلقي علم التفسير.

ونحن ننعت اليوم بإذن الله وحوله وقوته؛ الطريق الموصلة إلى كيفية تحصيل ملكة التفسير، ونريد بالملكة كما سبق الهيئة الراسخة في النفس التي يتحقق بها في نفس الإنسان معرفته بتفسير كلام الله ﷻ حتى يتجلّى في علومه كلها، سواءً ما يتعلق بباب الخبر أو بباب الطلب، أو ما تعلق بالآداب والأخلاق؛ ذلك أن القرآن الكريم كما سلف كتاب هداية، ومقتضى ذلك أن يكون القرآن الكريم في كل باب من أبواب العلم والدين.

فأول ما ينبغي أن يحوزه المرء كي يصل إلى ملكة التفسير تعظيم القرآن وإجلاله، وهٰذه البابة هي أول دُرّة من خرز فهم كتاب الله ﷻ وتلاوته، وينبغي لمن يُلَقِّن كتاب الله ﷻ الصغار في الكُتّاب قبل الكبار أن يُعْلِمهم بأنهم يتلقون كلام الله ﷻ، كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٦] ، فإذا عُظِّم القرآن الكريم في قلب الإنسان تلقّاه بشدة إقبال وزيادة محبة وتغرغرت

روحه بلذته، وقد قال بعض الأدباء قديما: (كلام الملوك ملوك الكلام)، أي: أن كلام ملوك البشر يُجعل مقدما بين كلام البشر كلهم، وإذا كان الأمر كذلك فإن كلام ملك الملوك ﷻ أجلّ من كلام غيره، فينبغي أن يأخذ الإنسان كتاب الله ﷻ بتعظيم وإجلال، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:٨٧] ، فهو قرآن عظيم، وهٰذه الكلمة من أدلِّ الكلمات في لسان العرب على بلوغ الشيء غايته، فإنك إذا أخبرت عن رجل عظيم أو قصرٍ عظيم أو غير ذلك مما يُنسب إلى العظمة؛ فإنك تخبر عن جليل القدر، فإذا أُخبر عن القرآن بأنه عظيم، فاعلم أن أول ما ينبغي أن تتلقّنه في تحصيل ملكة التفسير خاصة؛ بل في أخذ كتاب الله ﷻ عامة؛ أن تعظِّمه وأن تُجلّه بأن تعلم أن هٰذا هو كلام الله ﷻ، وأول باب ينبغي أن يُلقّن للصغار والكبار في تلاوة كتاب الله أو في معرفة معانيه أو في استنباط أحكامه هو بابٌ: القرآن كلام الله، فإن العبد إذا عرف أن هٰذا الكلام الذي يتعاطاه قراءة وتدبرا وتفسيرا واستنباطا للأحكام هو كلام الله ﷻ؛ جلّ في عينه وعَظُم في نفسه، فأوجب ذلك التعظيم أن يكون تلقيه للقرآن الكريم تلقيا مباركا.

وقد روى الدارمي وسعيد بن منصور وغيرهما عن إبراهيم النخعي قال: كان يقال: (عَظِّموا القرآن).

وعند الدارمي وغيره أيضا عن أبي حكيمة العبدي أن علياً ﷺ كان يمر بهم وهم يكتبون المصاحف، فيقف عليهم فيعجبه صنيعهم وكتابتهم فيقول: (نوِّروا ما نوَّره الله)، وكل ذلك مما يندرج في تعظيم كلام الله ﷻ.

فأول درة في عِقد بناء ملكة التفسير أن تعظِّم القرآن وتُجلّه، وأن توقن أن هٰذا الكلام الذي تتلقاه وتتلوه وتتعرف إلى تفسيره هو كلام الله ﷻ، فينبغي أن يؤخذ بالإجلال والإعظام.

وقد روى الدارمي وابن أبي داود في المصاحف من حديث ابن أبي مُليْكة عن عكرمة بن أبي جهل ﷺ أنه كان يتلو القرآن، ثم يضع المصحف على وجهه ويقول: (كتاب ربي كتاب ربي) وهو يبكي، فقد وجد من عظيم أثر هٰذا الكلام ما أرقّ نفسه وأجرى دمعته واقشعرَّ معه جلده وقلبه، فَلانَ إلى ذكر الله ﷻ، فأرسل الدمع مدرارا وأجرى اللسان مقالا: (كتاب ربي كتاب ربي)، وانظر هٰذه الجملة الاسمية ما فيها من الحصر والثبوت والاستقرار وجلالة المعنى في معرفة أن ما يأخذه الإنسان بيديه هو كتاب الله ﷻ، فنسأل

الله ﷻ أن يرزقنا إجلال القرآن وتعظيمه.

وأما الدرة الثانية في جواهر هٰذا العِقد، فهو **الفرح بالقرآن ومحبته والتمسك به**، فإن القرآن الكريم كلام الله ﷻ، ولو أن أحدَنا بعث إليه محبوبه من البشر كتابا في رسالة أخذه بمحبة وربما قبّله واشتدت عليه يداه، فكيف بكلام الله ﷻ، وقد سئل العلامة عبدالرحمن الدوسري أحد علماء القرن الماضي عن آلة المفسر فقال: أولها الفرح بالقرآن الكريم، وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، إذ ذلك امتثال لقول الله ﷻ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]، قال أبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فضل الله الإسلام ورحمته القرآن)، فينبغي أن يفرح الإنسان بكتاب الله ﷻ كيف أن الله ﷻ من عظيم رحمته وواسع فضله أنزل على رسولنا ﷺ كتابا يتلى؛ هو القرآن الكريم، ثم لم يزل يُتَنَقَّلُ في طبقات الأمة وقرونها حتى انتهى إلينا، فأي فخر أعظم من هٰذا الفخر إذا كان هٰذا الكتاب الذي تقرأه كما قال حافظ الحكمي:

هو الكتاب الذي من قام يقرؤه ... كأنما خاطب الرَّحمٰن في الكلم

فالذين يفرحون بمخاطبة الملوك قَمينٌ بالمؤمنين أن يفرحوا بمخاطبة ملك الملوك ﷻ، وتأملوا رحمكم الله كيف فرحت الجن لّما سمعوا القرآن الكريم كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف]، فهٰذا الكتاب تلقّته الجن بالفرح ورأوه كتابا مصدقا، وفي سورة الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن]، فأخبروا أن هٰذا كتاب عجيب وفرحوا به وتلقّوه وتمسكوا به، فهداهم الله ﷻ إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وقد كان السلف رحمهم الله تعالى يوصون بمحبة القرآن الكريم، ولهم رحمهم الله تعالى في ذلك كلام كثير، وأكثرهم فيه كلاما وأعظمهم له بيانا صاحب القرآن أبو عبد الرَّحمٰن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولن تجد أحدا من الصحابة تكلم في إجلال القرآن ومحبته والتلذذ فيه كابن أم عبدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه كان يقول كما رواه الطبراني في «المعجم الكبير»: (من أراد أن يعلم أنه يحبُّ الله ورسوله، فلينظر هل يحبُّ القرآن؟ فإنه إن كان يحبُّه؛ فإنه يحب الله ورسوله)، وروى الدارمي عنه أنه كان يقول: (من أحبّ القرآن فليُبْشِر)، يعني فليُبشر بكل خير، وسينال بهٰذه المحبة كل خير، وهٰذه المحبة تقتضي للإنسان أن يكون دائرا مع القرآن الكريم، لأنَّ المُحب إذا أحب شيئا دار معه كما أنشدت

رابعة:

تعصـــي الإلٰـه وأنــت تــزعم حبَّــه ... هٰـــذا لعمـــري في القيـــاس بـــديع

لــو كـــان حبُّــك صـــادقا لأطعتــه ... إنَّ المحـــبَّ لمـــن يحـــبُّ مطيـــع

فلو كان الإنسان فرحا بالقرآن صادقا في محبته، لعَظُم استمساكه به، ولذلك أُمر النَّبي ﷺ بالاستمساك به كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ ﴾[الزخرف:٤٣] ، وفي «صحيح مسلم» في خطبة النبي ﷺ التي رواها مسلم من حديث إسماعيل بن إبراهيم بن عُلَيَّة قال حدثني أبو حيان عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ قال: فذكر حديثا فيه خطبة، وفيه قوله ﷺ: (استمسكوا بكتاب الله)، فالعبد مأمور أن يستمسك بكتاب الله ﷻ ليظهر بذلك صدق محبته، فلا يقدِّم عليه شيئا أبدا كائنا من كان، وعند ابن أبي شيبة من حديث طارق بن شهاب أن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال لزيد بن صُوحَان: (أرأيت يا زيد إن اقتتل السُّلطان والقرآن، مع من تكون؟ فقال: أكون مع القرآن، فقال: نِعْم الزُّيَيْد إذًا أنت)، يعني: نِعْم الرجل المسمى زيدا أنت، لأنك استمسكت بالقرآن، وروى سعيد بن منصور أن رجلا جاء إلى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، فقال له: (أوصني بكلمات جوامع نوافع، فقال: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتزول مع القرآن حيث زال)، فمتى امتلأ القلب بالفرح بالقرآن والتمسُّك به وتقديمه على كل شيء؛ فُتح للإنسان مقام آخر في فهم كتاب الله ﷻ.

أما الدرة الثالثة من درر عِقد بناء ملكة التفسير، **فهي إدامة قراءة القرآن وتكرار النظر فيه،** فإن الله ﷻ قال لرسوله: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ ﴾[الكهف:٢٧] ، وأمر النبي ﷺ بأن نُديم قراءة القرآن الكريم.

ففي «صحيح مسلم» من حديث معاوية بن سلّام عن زيد بن سلّام عن أبي سلّام -وهو ممطور الحبشي- قال سمعت أبا أمامة رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه).

ولمّا وعى السَّلف رحمهم الله تعالى هٰذا الأصل امتلأت دواوين أخبارهم رحمهم الله تعالى بكثرة ما يُذكر فيها من تكرار قراءة القرآن الكريم آلافًا مؤلفة، وعظمت وصيتهم به.

فروى ابن أبي شيبة وبوّب عليه عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: (أديموا النَّظر في المصحف)، وروى عن يونس بن عبدالأعلى قال: (كان خُلُق الأولين النظر في المصحف).

وسُئِل نافع عن عمل عبدالله بن عمر فقال: (إنكم لا تستطيعون: الوضوءُ لكل صلاة، والمصحفُ بينَهما)، أي: أنه كان يقرأ طول وقته.

وروى ابن أبي حاتم في مقدمة الجرح والتعديل عن عبدالله بن وهب قال: (كنا نعجب من نزع مالك من القرآن، فسألنا أخته فقالت: أما إنه كان إذا دخل البيت لم يكن له شغل إلا القرآن).

فينبغي أن يُديم الإنسان النظر في القرآن الكريم، وكان بعض السلف كعبدالله بن المبارك يُقَلِّب المصحف وينظر فيه ولا يقرأ، لأن هٰذا من علامات شدة التعلق بالقرآن الكريم، فإذا عجز اللسان عن تكرار آياته بقراءتها وترتيلها، فإنه لا ينبغي أن يملّ النظر من التكرار في إعادته مرة بعد مرة في كلام الله ﷻ، وإذا كان المرء إذا رأى صورة حسنة أطلق لنفسه العنان في إدامة التمتع بها، فإن كلام الله ﷻ أعظم وأعظم.

وقد روي في حديث فيه مقال (أن النظر في المصحف عبادة)، لكن هٰذا المعنى ثابت عن جماعة من السلف رحمهم الله تعالى ورضي عنهم، فينبغي أن يجعل الإنسان القرآن الكريم شغله بالتلاوة والقراءة، وأن يجعله شغل قلبه كما قال عبدالله بن مسعود: (إن هٰذه القلوب أوعية، فأشغلوها بالقرآن ولا تُشغِلوها بغيره)، وكان قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى يقول: (اعمروا قلوبكم وعَمِّروا بيوتكم)، يعني: بالقرآن الكريم، فينبغي أن يكون للإنسان نصيب عظيم من قراءة كتاب الله ﷻ، ومآثر السلف قد بلغكم علمها في كثرة ما يُذكر عنهم رحمهم الله تعالى من آلاف المرات في قراءة القرآن الكريم.

أما الدُّرَّة الرابعة من درر عِقد جوهر بناء ملكة التفسير، فهي **سلامة القلب وطهارة الباطن**، فإن القرآن الكريم كتاب كريم، أخبر الله ﷻ عنه فقال: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة] ، وهم الملائكة، فإذا كانت آيات الكتاب في اللوح المحفوظ لا تمسها إلا الملائكة؛ والمصحف لا يمسُّه إلا طاهر كما جاء في حديث أبي بكر بن عمرو بن حزم في رسالة النَّبي ﷺ إليه عند النسائي وغيره، فكذلك معاني القرآن الكريم لا تصل إليها إلَّا القلوب الطاهرة ، فكما أن من لم يكن طاهرا يُمنع من مس المصحف؛ فكذلك القلب النَّجس يُفهَمُ من معاني القرآن الكريم، وشاهده قول الله ﷻ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ

فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[الأعراف:١٤٦] .

قال سفيان بن عيينة في هٰذه الآية: (أمنعهم فهم القرآن)، وقال الفِريابي في هٰذه الآية: (أحرمهم تـدبُّره)، فإذا كان القلب مشتملا على غل أو غش أو حقد أو غير ذلك من الأجناس والأدناس القلبيـة؛ فـإن فهمـه للقرآن الكريم يضعف، وقد كان سهل بن عبدالله التَّستري يقول: (حرامٌ على قلب أن يدخلـه النـور، وفيـه شيء مما يُبغضه الله ﷻ. قال عبدالعزيز بن يحيى الكِناني: (عِلم القرآن كالأسد في غَيْله يمنـع غـيره)، يعنـي: أن الأسد في غيله -في غابته- لا يرضى بأن يكون معه غيره مما ينازعه، وكـذلك القـرآن إذا كـان في القلـب شيء من النجاسات القلبية من الكبر أو العلو أو الحسد أو الغش غير ذلك، فإن فهم القرآن لا يمازجه، فـلا بد أن يُطَهِّر الإنسان قلبه طهارة كاملة حتى تكون له ملكة حسنة في فهم كلام الله ﷻ.

أما **الدرة الخامسة** في عِقد جوهر بناء ملكة التفسير، فهي **تلقي التفسير بسلوك جـادة موصـلة إليـه**، لأن العلم كله في أي فن من فنونه لا يؤخذ إلا بطريق تُسلَك فتوصِل إليه، ومن ظن أنه يناله بغير تلـك الطريـق فلا يتعنَّى، لأنَّ الصادق المصدوق ﷺ قال فيما رواه مسلم بن الحجاج من حديث الأعمش عـن أبي صـالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: فذكر حديثا وفيه: «ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له بـه طريقا إلى الجنة»، فبَيّن أن للعلم طريقا تُسـلك كـالطرق التـي تُسـلك للوصـول إلى الجنـة، وهـي الأعـمال الصالحة التي بينتها الشريعة، وكذلك كل علم له طريق توصل إليه؛ مدارها الأعظم عـلى الحفـظ والفهـم، فإذا أخذ الإنسان علم التفسير وفق هٰذه الجادة فإنه يصـل بتلقّيـه عـن أهلـه، وإذا رمقْـتَ أحـوال السـلف رحمهم الله تعالى وجدت لهم بناءً مشيدا وحالا مجيدا في هٰذا الأمر، فقد صـح عـن مجاهـد رضي الله عنه أنـه عـرض المصحف ثلاث مرات على ابن عباس يوقفه عند كل آية ويسأله عنهـا، وجـاور أبـو الجـوزاء الرَبَعـي رحمه الله تعالى ابن عباس عشر سنين يسأله عن معاني القرآن الكريم، فلا بـد أن يأخـذ الإنسـان علـم التفسـير وفـق جادة مأمونة يتلقاها على شيخ إما راسخ القدم فيه، وإما قادر عـلى إفادتـه في هٰـذا العلـم، لأن أربـاب هٰـذا العلم منذ أمد قديم وهم قليل، لكن يستعين الإنسان بمن له مُكنة في أي باب من الأبواب التي ذكرنـا فـيما سلف، فيجعله معينا له على الإحاطة بعلم التفسير.

وقد نعتنا فيما سلف تسع مراتب يترقى فيها طالب العلم مَرتبة مَرتبة وفق ما أمليْناه، فهو يبدأ بما افتتحنا

به وهو معرفة كليات الألفاظ في التفسير، ثم يترقى إلى غريب القرآن إلى تمام هٰذه التسع واحدة واحدة وفق الكتب المعينة، وتلك الكتب التي أرشدنا إليها لا يَظُنّن أحد أنها تخلو من غلط، بل يوجد فيها أغلاط، لكن متى كان للإنسان أو لمعلمه مُكنة في علم الشريعة خبرًا وطلبا، اعتقادا وفِقْهًا وأحكاما، فإنه يرشده إلى ذلك، لكنها الكتب التي دار علم التفسير عليها.

والمقصود من الإرشاد إليها دِلالة طالب العلم الذي يريد أن يتلقن هٰذا العلم وفق هٰذه المراتب.

وأما غيره فربما ينتفع بكتب أخرى من كتب التفسير، فمثلا آحاد الناس يُنعت لهم «التفسير الميسر» الصادر عن وزارة الشؤون الإسلامية في هٰذه البلاد، أو يُنعت لهم تفسير ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، لكن المخصوص بالكلام هنا الإرشاد إلى الكتب التي تُجعل في هٰذه الجادة التي يتلقى بها طالب العلم التفسير مَرتبة مَرتبة.

أما الدرة السادسة في عِقد جواهر بناء ملكة التفسير، **فهي معرفة أصول التفسير وقواعده**، وكل علم من العلوم المعظمة؛ له أصول وقواعد، والمراد بالأصول ما تتقدمه فيبنى عليها، والمراد بالقواعد ما تَخلُفُه وتنتج منه، فتكون معينة على فهمه، وأبْيَنُ شيء ذلك المعنى في علم الفقه أصولا وقواعد، وأما في غيره من العلوم، فقد وقع فيها امتزاج القول وعدم تبَيُّنِهِ، كالواقع في أصول التفسير وقواعده، فإن المصنفين في هذين الفنَّيْن خلطوهما بعضا ببعض وأدخلوا أيضا في مقامات أخرى علوم القرآن بحيث لم تتبين حقيقة علم أصول التفسير وقواعد التفسير.

والمراد بأصول التفسير: هي القواعد التي يُعرف بها معاني القرآن الكريم.

والمراد بقواعد التفسير: القضايا الكلية التفسيرية المنطبقة على آيات متفرقة من سور متعددة.

فذلك هو الحقيق بالأصول وهٰذا هو الحقيق بالقواعد، والواقع في تصانيف الناس المزج بينهما من غير فصلٍ لحقيقة هٰذا وذاك، وإن كان المعنى اللغوي والاصطلاح العلمي يؤول إلى ما أرشدنا، فمثلا يُعلم أن من أصول التفسير ما ذكره المتكلمون في دلالة الألفاظ في علم أصول الفقه، فإن هٰذا آلة لفهم الوحي، وأعظم الوحي هو القرآن الكريم، فالخاص والعام والمطلق والمقيّد وأشباه ذلك مما يتعلق بأصول التفسير، وأما قواعد التفسير فهو ما ينتج بعد سبر القرآن الكريم تفسيرًا من قضايا كلية تطَّرِد، كما مثّلنا بكلام جماعة

من السلف رحمهم الله تعالى كقول عبدالله بن عباس: (كل سلطان في القرآن فهو حجَّة)، فهٰذه قاعدة تفسيرية تُعمَل في آيات كثيرة من سور متعدّدة يتجلى بها معنى السلطان ويصير بيّنا.

أما **الدرة السابعة** من عِقد جوهر بناء ملكة التفسير، فهي **دراسة ما يُحتاج إليه من علوم القرآن**، وعلوم القرآن مضاف ومضاف إليه، والمراد بمعنى الإضافة هنا: علوم للقرآن، أي: أنها تعين على فهمه والإحاطة به علما، وليس المراد بذلك العلوم التي تُستنبط منه، فإن العلوم التي تُستنبط من القرآن هي في كل طريق وصعيد، فإن الفقيه يستنبط منه علما، وإن المحدث يستنبط منه علما، وإن الطبيب يستنبط منه علما، وإن الفلكيّ يستنبط منه علما بحسب علمه الذي هو فيه.

وليس المراد من هٰذا القول الإبانة عن أن القرآن الكريم يحتوي علوم البشر، كلا، فإن القرآن الكريم فوق علوم البشر، ولكن قد يوجد فيه إشارات إلى ذلك، وقد تعسف المتأخرون في مزج ما وصلوا إليه من أحوال الكون بالقرآن الكريم مما يسمى بالإعجاز العلمي، وهٰذه التسمية خاطئة لأن العلم ليس محصورا فيما توصلوا إليه من قواعد ومعلومات تتعلق بالفضاء أو بالكيمياء أو بالفيزياء، بل أعظم العلم؛ علم الخبر والطلب من الأحكام الشرعية، كما أن لفظ الإعجاز فيه ما فيه، وسبق الإشارة إلى هٰذا على وجه التوسع في غير هٰذا المقام، وإنما يسمى ذلك دلائل صدق القرآن الكريم، وما يذكرونه فيه ما يكون القرآن دالا عليه، وفيه ما يكون ذِكْره على وجه التعسف والغلط فيه.

ولا ينبغي لمثل هؤلاء أن يتكلموا في تفسير القرآن، وإنما يأخذون علم التفسير من أهله، فما وجدوه مصدقا لعلومهم أشاروا إليه، أما أن يبحثوا في القرآن الكريم عن علم الكيمياء وعلم الفيزياء وعلم الفضاء فليس القرآن الكريم محلًّا لذلك، والمقصود الإشارة إلى أن العلوم التي ينبغي أن تعتني بها من علوم القرآن؛ هي العلوم التي يُحتاج إليها في فهمه، وهي أنواع كثيرة: كعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم مناسبات سور القرآن الكريم، وعلم رسم القرآن الكريم، وعلم الوقف والابتداء؛ في قائمة طويلة من العلوم، ومن أوسع الكتب المصنفة فيها كتاب «الإتقان» للعلامة جلال الدين عبد الرَّحمٰن بن أبي بكر السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، وللناس في ذلك كتب دون هٰذا الكتاب من الكتب المختصرات كمنظومة الزمزمي، فإنها في علوم القرآن مع طرف من أصول التفسير، وكذلك كتاب «القول المنير في علم

أصول التفسير» للعلامة إسماعيل بن عثمان الزين رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، فإنه كتاب يشتمل على جملة من علوم القرآن، بل كثير من علوم القرآن، وسبق إملاء شرح عليه يوجد مبثوثا في الشبكة العنكبوتية في موقع برامج الدعوة والإرشاد.

أما **الدرة الثامنة** من عِقد جواهر بناء ملكة التفسير، فهي **إصابة حظ وافر من علوم الآلة المعينة على كشف معاني القرآن**، وعماد هٰذه العلوم هي علوم العربية، لأن القرآن عربي كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف] ، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف] ، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[الشعراء] ، فلا يتمكن المرء من الإحاطة بعلم التفسير واستيلاء قلبه على ملكته حتى يكون له حظ وافر من علوم اللسان، ولا سيما علوم النحو والبلاغة والتصريف، فإن هٰذه العلوم هي أعظم العلوم التي يُفتقر إليها في كمال فهم القرآن الكريم، وقد روى ابن أبي شيبة عن عبيدالله بن عبدالله أنَّ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان يُسأل في القرآن فيُنشد فيه الشعر، يعني: في معانيه، لأن علم اللغة – يعني مفرداتها – من العلوم التي يحتاج إليها المفسر، واللغة تفتقر إلى شواهد تُصدّق ما يذكره اللغوي من المعاني، ومن لم يكن له علم باللسان العربي فإنه لا يتكلم في القرآن العربي، وكان مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (إن أُتِيَّ إلي برجل غير عالم بالعربية يفسر القرآن جعلته نكَالًا)، يعني: أنزلت به عقوبة عظيمة، لأن القرآن الكريم لا يفسره إلا من كانت له مكنة في اللسان العربي، ولا نعني بهٰذا كما يَتوهم بعض الناس قدرا يسيرا من اللغة، بل كلما أوغل المرء في لسان العرب كلما كَمُل له فهم القرآن الكريم، ومن الناس بأخرة من يرى أن علم البلاغة لا شغل للمفسر به، وهٰذا من الغلط، فإن علم البلاغة تتجلى به المعاني العظيمة للقرآن الكريم، فإنه ربما تكلم متكلم في قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة] ، فبيّن معناها، لكن بقي ورائها من بلاغة القرآن؛ أن الله ﷻ جاء بحمده في هٰذه الآية في جملة اسمية للدلالة على الدوام والثبات، فإن الجملة الاسمية موضوعة في لسان العرب في معاني الكلام عندهم للدلالة على دوام الشيء وثباته، فبذلك إرشاد إلى دوام حمد الله ﷻ وثباته، وكذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾[الكوثر] ، ولم يقل: إن شانئك أبتر، بل أُدخل الضمير وزيد وصلا للدلالة على

أن الأبتر حقيقة هو مُبغض النبي ﷺ، فلا بد أن يشتغل الراغب في بناء ملكة التفسير بعلوم العربية خاصَّة، وأُدرج علم أصول الفقه لما فيه من العناية بدلالات الألفاظ، فإن علم أصول الفقه اعتنى المصنفون فيه كثيرا بدلالة الألفاظ ونوّعوها أنواعا وجعلوها أبوابا فيُحتاج إليها كذلك.

أما **الدرة التاسعة** بعدما سبق، فهي استيفاء قدر متين من علوم الدين، فمن رسخت قدمه في العلم كَمُل علمه بالقرآن الكريم، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[آل عمران:٧] على عطف الراسخون على اسم ربنا ﷻ، فالراسخون في العلم لهم مكنة في معرفة تأويل كلام الله ﷻ، وقال الله ﷻ أيضا: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾[العنكبوت:٤٩]، فمن كَمُل علمه بالدِّين كَمُل علمه بكلام الله ﷻ، وقد ذكر ابن عطية في أوائل «المحرر الوجيز» أن أكثر علوم الدين مما يمس فهم القرآن؛ السنة والسيرة النبوية، وصدق رحمه الله تعالى، فإن هذين العلمين لهما أثر ظاهر قوي في معرفة معاني كلام الله ﷻ، وكذلك ما وراءهما من العلوم التي اصطلح عليها الناس كعلم الفقه وعلم الاعتقاد وغيرهما؛ تُعين مُدرِكها على فهم القرآن فهمًا أعظم من غيره، فإنه ربما قرأ الإنسان الآية أو فهم من تفسيرها شيئا وعزب عنه علم أشياء لجهله بعلم من علوم الشريعة، فلو قرأ قارئ مثلا قول الله ﷻ: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾[البقرة:١٩٦]، وظن أن الآية خاصة بما اصطلح عليه الفقهاء في تسميته بمنسك التمتع، وأما في الوضع الشرعي وعند الفقهاء المحققين لا يختص التمتع بمنسك التمتع، بل القِران مندرج فيه، لأن القِران والتمتع كلاهما توسعة من الله، فإن العرب لم تكن تجمع بين عمرة وحج، ثم جاء الشرع بالجمع بينهما في القِران والتمتع، وسُميا جميعا تمتعا لحصول الانتفاع بالتمتع بهما في جمع العمرة والحج معا.

أما **الدرة العاشرة** في بناء ملكة التفسير، فهي **الاعتناء بثَنْي القرآن بعضه على بعض وتصديق بعضه ببعض**، فإن الله ﷻ قال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾[الزمر:٢٣]، أي: يرجع بعضه على بعض ويُثنى بعضه على بعض، لأنه متشابه، أي: يُصدّق بعضه بعضا، ومن لم يجعل القرآن مصدقا بعضه لبعض، فإنه يَنقص حظه منه، وربما أوصله ذلك إلى الكفر كما قال الله ﷻ في حق الكافرين: ﴿ٱلَّذِينَ

جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾[الحجر]، يعني: متفرقا، فصدَّقوا بعضا وكذبوا بعضا، وكذلك من لا يكون له شغل في وصل القرآن بعضه ببعض، ويظن أن آية من القرآن لا تتعلق بغيرها، فله نصيب من هٰذه التفرقة، ولكن من امتلأ قلبه بأن القرآن كتاب متشابه يصدق بعضه بعضا، فرد بعضه إلى بعض تجلى له من معانيه ما يزيده إيمانا وإيقانا كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، وفي القراءة الأخرى: ﴿لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾، لكنّ من رد بعضه على بعض وصدق بعضه ببعض، تجلى له فهم القرآن تامًّا، وهذ الرد لبعضه على بعض تارة يكون من دلالة السياق، فإن الإنسان إذا قرأ آيات القرآن الكريم ينبغي له أن يَنْظِمها في سَلْكٍ واحد، ولا يظنّن أن آية من هٰذه السورة منفصلة عما قبلها وما بعدها، لأن كلام البليغ يُنزَّه عن ذلك، فكيف بكلام رب العالمين ﷻ، وهٰذه الدلالة؛ وهي دلالة السياق في القرآن وغيره من أعظم الدلالات كما أشار إلى ذلك أبو محمد بن عبدالسلام في كتاب «الإمام»، ونقل كلامه الزركشي في «البحر المحيط»، وأشار إلى هٰذا المعنى بعده ابن القيم في «بدائع الفوائد»، فإن دلالة السياق تُعيِّن المُحتَمَل، وتُبيِّن المجمل، وتُقيِّد المهمل، فالمرء محتاج إلى الفزع إليها في فهم كلام الله ﷻ، أو ترجيح بعض الأقوال المذكورة في التفسير على بعض كقوله ﷻ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾[المدثر]، فإن معنى الثياب هاهنا تُنوزع فيه فقيل: هو الثياب الملبوسات، وقيل: هو الأعمال الملابَسات، والصحيح منهما الثاني، وعليه أكثر السلف ورجحه أبو جعفر بن جرير، لأن السياق دال على ذلك؛ لأن السياق في تعظيم الله وإجلاله وتنزيهه، والمناسب لذلك في الدعوة والبلاغ هو تطهير الأعمال، ومن هٰذا الجنس مما يرجع إلى تصديق القرآن بعضه ببعض، وفيه تتجلى ملكة التفسير حقا؛ تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالقرآن هو أصح المطالب العِلْمية في تفسير الآيات القرآنية، وهو نوعان:

أحدهما: تفسير متصل، ومنه قوله تعالى في سورة الطارق: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾، ثم قال: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾[الطارق]، فإن هٰذا تفسير للطارق على وجه اتصال الكلام.

وأما النوع الثاني فهو: المنفصل، ومنه في قول الله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة]، فإن مالك يوم الدين تفسرها آيات أُخَر في سورة الانفطار في قول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ

ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾[الإنفطار]، فهٰذه الآيات تفسر تلك الآية، لكنّ بينهما انفصالا. وهٰذا التفسير للقرآن بالقرآن نوعان:

أحدهما: لفظي، كالأمثلة التي ذكرنا، وهو في القرآن قليل.

والآخر: معنوي، وهو مُعْتَرَك الأنظار والبحر الواسع العظيم لمن فتح الله ﷻ له فهمًا، فإن الإنسان إذا قرأ آية من كتاب الله ﷻ؛ فغَمُض عليه معناها فلربما وجد على وجه التصديق لها ما يُبيِّن المعنى، لكن ليس بلفظها.

فمثلا قول الله ﷻ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾[الضحى]، أي ضلال كان فيه النبي ﷺ؟ ما الجواب؟ ولا يُنبؤك مثل خبير، ولمّا ترك بعض الناس كلام العليم الخبير؛ وقعوا في أشياء لا تليق بمقام النبي ﷺ، ولكنّ العالم بكتاب الله ﷻ يقول: يُبيِّنها قول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾[الشورى:٥٢]، وقوله ﷻ في سورة يوسف: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾[يوسف:٣]، فالضلال الذي ذُكِرَ فيه النبي ﷺ؛ هو غفلته عما أُريد منه، وعدم علمه بما رُشِّح له ﷺ، فهٰذا تفسير للقرآن بالقرآن باعتبار المعنى، ومن أمعن النظر فَهِمَهُ فهما بيّنا.

وانظروا فيما تكرر في المفصّل كثيرا من ذِكْر أحوال السماء في الآخرة، فإنك تجد الله ﷻ يقول: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾[الرحمٰن]، وقال ﷻ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾﴾[الإنشقاق]، وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾﴾[الإنفطار]، وقال: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾﴾[المعارج]، في آيات أُخر جَمْعُها يُبيِّن لك تفسير كل آية منها، وهٰذا هو الذي صاغه المتأخرون باسم التفسير الموضوعي، وإن جنح بعضهم بهٰذا المسمى إلى خارج مقام القرآن الكريم، لكنّ حقيقة التفسير الموضوعي هو تصديق القرآن بعضه ببعض، وهو تفسير للقرآن بالقرآن، لكن لا على وجه اللفظ بل على وجه المعنى، وكلاهما مقام حميد، لكنّ مقام اللفظ في القرآن قليل كالأمثلة التي ذكرنا، وأما مقام المعنى فهو الأكثر، وهو يحتاج إلى إعمال نظر.

ولا ينبغي أن ينظر الإنسان إلى كلام المفسرين قبل أن ينظر إلى كلام رب العالمين، فإنه إذا نظر كذلك فَهِمَ القرآن، وقد كان شيخ شيوخنا محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى يقرأ اللوح الواحد من القرآن مائة مرة، يقرؤه مائة مرة لأنه يتبدّى له من الفهم فيه وردٌّ بعضه إلى بعض ما لا يكون في المرة الأولى فالثانية فالثالثة فالرابعة فالخامسة فالسادسة..

أما **الدرة الحادية عشر**، وهي الأخيرة من درر عِقد جوهر بناء ملكة التفسير، **فهي تدبر القرآن وإمعان النظر في استنباط معانيه**، لأن الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا بذلك فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩] ، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[محمد] ، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النساء] ، والمراد بتدبر القرآن: نظرُ القلب إلى معاني القرآن لبلوغ غايتها، والدليل على أنه نظرُ القلب قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾، فذَكَرَ القلوب لأنها محل التدبر، والمراد من ذلك النظر القلبي، هو الوصول إلى غايات الآي والسور، لأن اسم التدبر مأخوذ من دُبُرِ الشيء وهو آخره، فهو ينظر بقلبه في الآية للوصول إلى المراد منها، أي: ما سماه المتأخرون: استنباطات أو أحكاما، فالتدبر عَمَلٌ قلبي أم فِعْلٌ ظاهري؟ ما الجواب؟ عمل قلبي، على ما ذكرنا في قول الله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[محمد:٢٤] ، فهو عمل القلب، وهٰذا التدبر يُنتِج معرفة معاني القرآن وفهمه على الوجه الكامل، والتفسير درجات، والدرجة العالية لا يَبْلُغها المرء إلا بتدبر القرآن الكريم، فإن المفسر الصِرف: هو الذي له يدٌ في تدبر القرآن الكريم، وهٰذا النظر التام في غايات السور هو الذي يجعل الإنسان عاملا بالقرآن الكريم، ولأجل هٰذا لمّا ذُكِر التدبر عند الحسن قال: (هو العمل به)، يعني: أنه يورِثُ بَعْدَ نظر القلب الامتثال لمقاصد هٰذه الآي، ثم خروج ذلك عملا، وأما بُدُوُّ أثره مدونا مكتوبا فهو علم التفسير، ولأجل هٰذا تجافى السلف رحمهم الله تعالى وأئمة العلم بالقرآن أن يُسَمُّوا كتبهم تدبّر القرآن، ولم يوضع كتاب من الكتب باسم تدبر القرآن إلا في القرن الخامس عشر، فإنكم لا تجدون أحدا من الأولين أبدا ألّفَ كتابا في تدبر القرآن، لأن تدبر القرآن مما يُكتب ويُسمى تدبر القرآن؛ ليس هو تدبر القرآن، وإنما هو أثره من الفهم ومعرفة المعاني، وأما تدبر القرآن فإنه عمل قلبيّ، والمتكلمون

اليوم في تدبر القرآن طائفتان:

فالطائفة الأولى قوم أرادوا تعظيم القرآن وردّ الناس إليه بالنظر فيه ومعرفة تفسيره، وهؤلاء محسنون، ولكنّهم خالفوا ما كان عليه الأوائل من تسمية ذلك تفسيرا، لأن التفسير درجات.

وأما الطائفة الثانية: فطائفة أرادوا أن يكون القرآن كتاب فلسفة للحياة يتكلم فيه كل من يشاء بما يشاء، وهٰذا هو الذي صار بأَخَرة ديدانا للناس ممن يتكلم في تدبر القرآن، فإذا وقع في ذهنه معنى أو خاطر من الخواطر؛ تكلم به وقال هٰذا هو معنى الذي يدل عليه التدبر، وليس الأمر كذلك، وانظروا البَوْنَ الشاسع بين والفرق البعيد بين العالِمين بالقرآن ومن يُجيب الخَطَرَة.

فإن بعض المتكلمين في هٰذا الباب ذكروا أن الله ﷻ لم يذكر تحريمَ لَحْمٍ في القرآن إلا لحم الخنزير، ثم أشار إلى أن موجب ذلك هو أن أطعمة العالم اليوم أكثرها لحم الخنزير، فجيء به للدلالة على عالَمية القرآن، فالقرآن عالمي يُنبه على كل زمان وآن، وليس الأمر كذلك، وإنما الأمر ما ذكره الراغب الأصفهاني في كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة أنه لمّا كانت العرب أكثر خلطة للنصارى من اليهود؛ فإن اليهود والعرب كانت بينهم نفرة، وأما النصارى في جهات الشام فكان للعرب من بني تغلب وغيرهم خلطة بهم، فلما كان للعرب معهم خلطة؛ أراد الله ﷻ أن يفصم عرى خلطتهم بهم؛ بتحريم أعظم مآكل النصارى وأكثرها عندهم، وهي لحم الخنزير، فنُبِّه عليه في القرآن مرارا، فانظر بين تدبر العالم بالقرآن وبين من يتكلم بِخَطَرَة، وقد اطلعتُ على شيء من المقيدات في هٰذا فرأيت فيها زللا عظيما، لأن الناس صاروا يتجرؤون على كلام الله ﷻ، وكان السلف يقولون كما قال الشعبي وغيره: (اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله)، وقال مُسلِم بن يسار: (إذا أخبرت عن الله، فانظر ما قبله وما بعده)، يعني: إذا أردت أن تفسر القرآن فلا بد من نظر تام، فالكلام بالخواطر وما يقع في قلوب الناس مما يسمى تدبرا ليس كذلك، والدليل تجافي السلف في هٰذا المعنى مع أنهم أولى به.

وقد تكلم بعض الناس ممن صار ينصر الديمقراطية أو القومية أو الوطنية أو غيرها بأشياء يزعم أنها من تدبر القرآن الكريم، وهٰذا من الغلط في التفسير وعدم إجلال كلام الله ﷻ.

فينبغي أن يرُدَّ المرء إلى نفسه بأن يكون المطلوب من التدبر نظر قلبه في القرآن الكريم ليستنبط ما فيه من

المعاني، وهٰذا الاستنباط متى استولى على قلب الإنسان فإنه يظهر له من المعاني في فهم كلام الله ﷻ ما لم يكن له ولا لغيره من قبله.

وانظروا إلى أمر تقرؤونه جميعا في كتاب الله ﷻ وهي الحروف المقطعة، ولعلكم جميعا رأيتم تلك الحروف المقطعة، ولكن هل وقع في نفس أحدكم سؤال لماذا جيء بالحروف المقطعة في أوائل السور، ولم تُجعل في أواسطها ولا في أواخرها، فلا تجد في القرآن الكريم حرفا مقطعا موجودا في وسط السورة ولا في آخرها ، وإنما جُعِل في مقدمتها، ولا ينبغي أن يقع هٰذا إلا لأمر مراد، والمراد من ذلك هو الإشارة إلى أن ما بعد هٰذه الحروف المقطعة هو من جنسها، فهو من كلام العرب الذي تتكلم به، فتحدَّاهم الله ﷻ به، وأشار إلى كَوْن ذلك مرادا من الحروف المقطعة قدماء أهل العربية كالخليل بن أحمد وقُطرُب والمُبرِّد، ونصره المحققون من المفسرين كالزمخشري وأبي العباس بن تيمية الحفيد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، فإن الحروف المقطعة لا يقال لا تُعلَمُ معناها، بل هي حروف من جنس الحروف التي يتكلم بها العرب، نبّه الله ﷻ بإيرادها في أوائل السور إلى أن الكلام المنسوج بعدها هو مما تركّب من هٰذه الحروف، فإن كان لكم أيها العرب قدرة على مجاراته فجاروه.

ولأجل هٰذا ذكر ابن كثير ومحمد الأمين الشنقيطي رحمهما الله أنه لا توجد سورة استُفتِحت بشيء من الحروف المقطعة إلا وفيها ذِكْر القرآن الكريم، بل زاد محمد الأمين الشنقيطي بيانا فقال: إن الله ﷻ إذا ذَكَرَ الحروف المقطعة أشار إلى تنزيل القرآن الكريم ثم قَرَنَهُ بأسمائه الدالة على عظمته، كقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾[غافر] ، ولمّا ذكره في سورة يس قال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس] ، ثم قال في أثنائها بعد آيات: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾[يس] ، للإمعان في بيان عظمة القرآن وجلالته وأنه منزل من الله ﷻ المسمى بهٰذه الأسماء.

وهٰذا التدبر وما يُرْزَقُه الإنسان من فهم القرآن هو الحقيق بقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة:٢٦٩] ، قال إبراهيم في تفسير هٰذه الآية: ومن يؤت الحكمة: قال: (الفهم للقرآن فقد أوتي خيرا كثيرا)، وإذا طَهُر القلب وكَمُل التدبر خرج للإنسان من العلم الشيء العظيم، ويؤثر عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: (لو شئت لأوْقَرْتُ لكم من الفاتحة سبعين بعيرًا)، أي: من العلوم المستخرجة

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

منها، وإذا كان هٰذا حال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلا يستبعده الإنسان لأنه وقع لمن دونه ما هو مستعظم، فإن أبا بكر بن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر في تفسير آية الوضوء أنه تَذَاكرَ الأحكام المستنبطة والمعاني المستفادة منها مع أصحابه في بغداد، فاستخرجوا منها أَزْيَدَ من خمسين وثمانمائة حكم، وذكر ابن القيم في «الجواب الكافي» أن في سورة يوسف ألف فائدة، فإذا كَمُل العلم ورسخ الإيقان والإيمان، فإن الإنسان يُفتح له من فهم القرآن الشيء العظيم، فهٰذه الدرر الإحدى عشر هي التي يُسلَكُ فيها عِقد جوهر بناء ملكة التفسير، فمتى استوفاها الإنسان وصار له حظ منها، فإن ملكة التفسير تقَرُّ في قلبه ويكون مفسرا بالنفْس، كما يقال في الفقهاء: فقيه بالنفْس، يعني: أن روحه ونفْسه ممتزجة بالفقه، فكذلك من تبَوَّءَ هٰذا المقام صارت روحه ونفْسه ممتزجة بتفسير كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وبهٰذا نكون بحمدالله قد أتيْنا على المقدمتين اللتيْن أردتُ أن أتقدم بالكلام فيهما قبل أن ننتقل إلى بعض المجالس في تفسير كلام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ونشرع غدا إن شاء الله تعالى في مثل هٰذا المقام في قراءة كتاب معاني الفاتحة وقصار المفصل، ونُعلِّق عليه تعليقا بما يناسب المقام، وهو كتاب سبق توزيعه في هٰذا المسجد مرتين، ولعل كثيرا من الإخوان عندهم نسخة منه، فنبتدأ بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غدا في قراءته والتعليق عليه بما يناسب المقام.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا من أهل القرآن وخاصته، وأن يرزقنا فهمه والعلم به، وأن يرزقنا علما نافعا يقربنا إليه، وأن يجعل القرآن الكريم هاديا لنا ودليلا، ومرشدا إلى جناته جنات النعيم، اللّٰهمَّ علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نُسينا، واجعله إمامنا وقائدنا إلى جناتك جنات النعيم، اللّٰهمَّ اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء همومنا وغمومنا، والحمد لله ربِّ العالمين.